

25
روايات مصرية للجيب
فانتازيا
من أجل طروادة
Looloo

مقدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لاتملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولاتجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة أو ممثلة ، ولاتملك مؤهلاً دراسيًا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولاتملك أىّ نكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًا .. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلتها الشائقة إلى (فانتازيا) ..

ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لاتتغيَر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

* * *

١ـ خارج أسوار المدينة ..

لاتذكر متى جلست إلى المقعد إياه ..

لاتذكر متى ثبتت الأقطاب إلى رأسها ..

لاتذكر متى انتظرت حتى صحا القرص الصلب من نومه ، ولاكيف دخلت إلى عالم الـ Dos القاتم الرتيب ، تاركة وراءها عالم (النوافذ) المبهرج الصاخب .. إن (فانتازيا) تنتظرها هنا ..

ضغطة واحدة على زرّ الإدخال ، ويتلاشى عالمنا الحالى بمشاكله وصخبه ... و ... خياناته ..

ضغطة واحدة وتجد نفسها فى عالم الخيال ، وسط الأبطال الذين حرمنا نحن من لقائهم إلا على الورق ، أما هى ـ (عبير) ـ فتعرف كيف تلقاهم .. تحبهم .. تكرههم .. تختلف معهم .. تعيش مغامراتهم لحظة بلحظة ..

لاتذكر متى ضغطت الزر ، لكن المؤكد أنها ذابت تمامًا .. لم تعد هنا ..

صارت هناك ..

* * *

قال لها المرشد فى خبث ، وهو يمدّ يده ليعاونها على ركوب القطار :

ـ « مرحبًا .. أنا شديد الإعجاب بحزمك البالغ مع مشاكل الحياة الواقعية ! »

لم تفهم لوهلة ، ثم فهمت ، فقالت فى ضيق :

ـ « آه .. تعنى موضوع الرسالة هذا ؟ لا أدرى ما حدث .. لكنى أفضل أن أرجئ المواجهة قليلاً .. »

ـ « لا تطيلى الانتظار وإلا تحولت إلى (هاملت) .. »

ثم نظر إلى ساعته ، ووجه لطمة إلى سقف عربة القطار آمرًا بالتحرك ، وهو تصرف كان يذكرها بعربات (الحنطور) ..

ـ « إلى أين ؟ »

هكذا سألها .. فقالت فى حيرة :

ـ « لا أدرى .. ألم نر كل شىء بعد ؟ »

استرخى فى مقعده ، وقال :

ـ « نعم .. إن (فانتازيا) تختلف عن أية مملكة أخرى فى أنها كالبحر .. فى كل ثانية لها معالم وحدود

تختلف عن الثانية السابقة .. لن تنتهى (فانتازيا) ببساطة إلا حين ينضب الخيال البشرى ، ومعنى هذا أن وجودها مرهون بوجود البشر .. إن الناس لا يكفون عن الخيال إلا حين يموتون ، وحتى أكثر المجتمعات صرامة وأكثرها بدائية ؛ لها ـ هى الأخرى ـ فنونها وقصصها الخيالية التى يسمعها القوم حول النار ليلاً ..

« ثمة لحظة أخرى يمكن أن تموت فيها (فانتازيا) .. إنها لحظة تكفين أنت عن القراءة أو رؤية الأفلام .. عندها لن يعود لديها معين تستمد منه الأحلام ، وعلى قدر ما أعرف عنك ما زالت هذه اللحظة بعيدة جدًا .. ولو أنك أصبت بالعمى ، لبحثت عمن يقرأ لك أو اشتريت مكتبة سمعية كاملة .. »

ارتجفت لهول الفكرة وغمغمت :

ـ « الملافظ سعد ! ولكن أية عوالم يمكن أن أراها الآن ؟ »

كانت تقول هذا وهى ترمق أطرافًا من قصص وأحداث ، بعضها مألوف بلا شك ، وبعضها مبهم كسرّ جميل ..

أخيرًا ترى أسوار مدينة .. مدينة من طراز قديم ..

حول الأسوار خيام ومعدات حصار ، وجيوش جرارة يرتدى أفرادها الدروع ويحملون السيوف .. ومن السماء كان هناك أشخاص مجنحون يرمقون المشهد ، أو يرفرف أحدهم هابطًا من أعلى ليفعل شيئًا ما ..

سألت المرشد وهى تحاول التخمين .

ـ « هذا المشهد .. من أية قصة بالضبط ؟ »

ألقى نظرة عابرة من النافذة ، ثم قال بلا مبالاة :

ـ « آه ! هذا حصار الإغريق لطروادة .. »

ـ « تعنى بذلك (الأوديسة) ؟ »

ـ « آه .. كلا .. (الأوديسة) تحدث بعد هذا .. لنقل إننا فى زمنٍ معاصر لملحمة (الإلياذة) .. »

فكرت قليلاً ثم سألته :

ـ « هل لى دور هنا ؟ يبدو عالمًا رجوليًا خشنًا .. »

ابتسم وقال :

ـ « كل شىء ممكن .. لاتنسىْ أنكِ شاركت فى حرب (قادش) وكنت فى عصابة (روبين هود) ، وفى كل مرة كنت تتحولين إلى رجل قوى .. ربما من أقواهم .. »

فى ضيق قالت :

ـ « لا أتكلم عن ألعاب تحويل الجنس هذه ، ولكنى أريد أن أظلَ أنثى حتى اللحظة الأخيرة .. من حق المرأة أن تظل أنثى ، كما من حق الرجل أن يظلَ رجلاً .. »

مدَ يده ليوقف القطار ، وقال :

ـ « هذا هين .. لاتنسى أن هذه الحرب كلها قامت من أجل عيون فتاة واحدة .. »

ـ « من هذه المحظوظة ؟ »

ـ « هل نسيت كل شىء ؟ إن هذه الفتاة هى أنت ياصغيرتى ! »

كان يمزح بالطبع لأنه كان يعنى (هيلين) ..

* * *

وحين توقف القطار لتهبط منه ، استعادت تلك اللحظات الأثيرية التى عاشتها أول مرة حين دخلت الأساطير الإغريقية .. الآن صارت حسناء إغريقية رائعة الجمال ، ترتدى عباءة بيضاء تنحدر برشاقة عن أحد الكتفين ، وحين تحسست مؤخرة رأسها أدركت أن شعرها معقوص على الطراز (الهيللينى) ، وحين نظرت لقدميها أدركت أنها تلبس صندلاً مدعمًا بأشرطة تلتف حول ربلتى ساقيها ..

وأدركت أنها لم تعد خارج (طروادة) ، بل هى داخلها ..

إنها داخل قصر الحاكم نفسه ..

* * *

٢ ـ هكذا تكلم (هوميروس) ..

كان أول وجه قابلته فى القصر ، هو ـ ويا للعجب ـ أقبح وجه رأته فى حياتها ، لكنها تذكرت أنها رأته من قبل .. إنه ذلك العجوز الضرير الأحدب ، الذى يرتدى الأسمال ويتكئ على عصا غليظة يضرب بها الأرض مرارًا مع كل مقطع من كلماته ..

ـ « (هوميروس) ! أيها الشحاذ القبيح ! ألم تمت بعد ؟ »

بحث عن مصدر الصوت ، حتى وجده ، فنظر لها بعينين بيضاوين لا سواد فيهما ، وقال وهو يضرب الأرض بعصاه :

ـ « (هيلين) أيتها الحسناء .. نعم لم أمت .. لأن الشعراء العظماء لا يموتون .. »

هناك كان معها حين دخل بطلها الإغريقى إلى كهف (ميدوسا) ، وكان يبحث عن إلهام شعرى يناسب

الموقف خاصة وأنه لا خطر عليه .. فالعميان لايرون وجه (ميدوسا) ولن يتحولوا إلى حجر ..

سألته وهى تتجه إلى أريكة :

- « ما هو دورك هنا بالضبط ؟ »

- « دورى ؟ يا له من سؤال ! إن أكثر ما يعرفه العالم عن حرب (طروادة) يعرفه من أشعارى .. ولو لم أكن أنا هنا فأين أكون إذن ؟ ومن يكتب (الإلياذة) و (الأوديسة) إذن ؟ إننى أفضل من يعرف تفاصيل هذا النزاع .. »

استرخت على الأريكة ، وسألته :

- « و (الإنيادة) ؟ ألست أنت كاتبها ؟ »

ارتجف تقززًا ، وصاح :

- « بل هو الأحمق (فيرجيل) .. أنا لا أكتب شعرًا بهذا السخف ! »

* * *

هنا نتوقف لحظات لنضع النقاط على الحروف كعادتنا فى (فانتازيا) ..

(هوميروس) شخصية أسطورية فازت بقدر هائل من الجدل .. لا أحد يمكنه أن يقسم على كون هذا الشاعر وجد فعلاً .. وهناك كثيرون يعتقدون أنه أكثر من واحد ، وأن الاعتقاد المدرسى القديم بوجود شاعر ضرير خلّد لنا قصة حرب (طروادة) ؛ هو اعتقاد يحتاج إلى مزيد من التمحيص ..

لكن هناك حقيقة واحدة : لقد تم تأليف (الإلياذة) و (الأوديسة) فى بعض المستعمرات اليونانية غربى آسيا الصغرى ، فى وقت هو حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ..

يمكن القول دون خطأ كبير : إن كلا الكتابين قد كتبهما شخص واحد ، لأن الأسلوب لايتغير ، وإيقاع الشعر الذى يصفونه بالـ Dactylic Hexameter ثابت فى كلتا الحالتين .. وشخصية الكاتب لاتظهر فى الشعر بتاتًا ، لأنه يتكلم بصيغة رسمية محايدة خالية من الانفعالات ..

ولفترة طويلة ساد الأوساط الأدبية المهتمة بالأدب اليونانى ، ما يمكن تسميته بالـ (سؤال الهوميرى) .. وهو سؤال بسيط جدًا : من كتب (الإلياذة) و (الأوديسة) ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وهو سؤال لم يجد إجابة قط ، ومن الجلى أنه لن يجد إجابة أبدًا ..

لكن حرب (طروادة) حدثت فعلاً ، وقد برهنت حفريات (هنريش شليمان) على أن قدرًا كبيرًا من الحقيقة موجود فى أشعار من نسميه (هوميروس) .. وعلى أن دمارًا كبيرًا قد حلّ بتلك المدينة فى (الأناضول) بتركيا ، وهذا الدمار حدث تقريبًا فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، ويعتقد علماء الآثار أن هذا الدمار نتيجة حرب قام بها اليونانيون فى محاولة لإنهاء سيطرة (طروادة) على التجارة فى مضيق (الدردنيل) ..

إذن هناك خلفية تاريخية لا بأس بها لكل هذا ..

(عبير) لا تعرف هذه التفاصيل ، ونحن كذلك سننساها ، فقط كى نستمتع بالقصة الخيالية التى

حكاها (هوميروس) ـ لو كان له وجود ـ وهو يعزف على قيثارته ، ويتسلى بالجبن والزيتون اليونانى من حين لآخر ..

* * *

وتعود بـ (عبير) / (هيلين) الذاكرة إلى ذلك اليوم الأسود ، الذى كان بداية المأساة كلها ..

يوم قرر (باريس) ابن حاكم (طروادة) أن يجلس وحده فى الليل يتأمل ، ويمكن لنا بسهولة حين نرى (باريس) ـ هذا الفتى الرقيع الناعم الذى تحوم على شفتيه ابتسامة غامضة لزجة ـ أن ندرك أنه لا يتأمل إلا فى ذاته .. إنه لا يجد وقتًا كافيًا للتفكير فى شىء آخر ، ولعله يتأمل فقط ليشعر بأنه يتأمل ..

كان رقيعًا ناعمًا ـ كما قلنا ـ مفعمًا بالنرجسية ، وفى هذا الزمن الشرس حيث لا يؤخذ أى حق إلا بالقوة ، كان هو لا يعرف كيف يمسك بالسيف ولا كيف يقاتل ، وكان جلده خاليًا من أى خدش إلا خدش أشواك الورود على أنامله ..

جلس الفتى فى تلك الليلة السوداء يتأمل ..

فما هى إلا ثوان حتى هبطت عليه ثلاث من ربّات (الأوليمب)، وهن (حيرا) و(مينرفا) و(أفروديت) .. ولمن لم يتشرف بهذه الأسماء من قبل ؛ نقول : إن (حيرا) هى زوجة (زيوس) الخبيثة القوية ، و(مينرفا) هى ربة الحكمة ، و(أفروديت) هى (فينوس) ربة الجمال .. إن العقيدة الوثنية الإغريقية كانت تهوى التخصص ، وكان لديهم إله مسئول عن كل شىء ، وبالطبع كان تصادم الاختصاصات يؤدى إلى كوارث لا توصف تنهال على رءوس البشر ..

كانت السيدات الثلاث يطلبن من (باريس) معروفًا واحدًا ، هو أن يكون حكمًا ويختار أجملهن .. ومن يختارها يقدم لها هذه التفاحة الذهبية ..

راحت كل واحدة منهن تغمز بعينها ، وتعده بالسعادة المطلقة لو اختارها هى ..

ووجد الفتى الأبله نفسه فى موقف محرج ، كأول مُحكَم فى مسابقة جمال فى التاريخ ، لكنه بعد تردّد

قدَّم التفاحة إلى أجملهن : (أفروديت) .. وهذا طبيعى جدًا .. إنها الزهرة ذاتها .. التحفة التى أجهد الرسامون ألوانهم فى رسمها من فجر التاريخ ..

وهكذا حصلت (فينوس) - (أفروديت) - على التفاحة واللقب ، وحصل هو على وعد منها بأن يتزوج أجمل امرأة فى الكون ..

ومن هى أجمل امرأة فى الكون ؟

* * *

(هيلين) الجميلة العذبة ..

(هيلين) التى يجلب جمالها المتاعب عليها أينما ذهبتْ ..

إنها زوجة الملك (منيلاوس) من (إسبرطة).. خطفها البطل (ثيذيوس) فى شبابها كى يتزوجها ، لكن أخويها الشجاعين (كاستور) و(بولوكس) أنقذاها منه ..

بعد هذا وجد أخواها أنه من الأفضل أن يزوجاها ، لتكون تحت حماية رجل قوى ، خاصة والذباب يطاردها أينما ذهبت ..

وكان أن صارت زوجة (منيلاوس) ملك (إسبرطة) الإغريقى .. حياة سعيدة مستقرة وزوج يهيم بها حبًّا .. لكن لابد من قوة كالسحر تفسد هذا كله ..

والقوة التى هى كالسحر ـ أو أقوى ـ كانت قوة (فينوس) .. أليست (هيلين) أجمل امرأة فى الكون ؟ ألم تعد (فينوس) الفتى بأجمل امرأة فى الكون ؟ إذن فالقصة صارت معروفة واضحة المعالم ..

* * *

أولاً : يصل (باريس) إلى (إسبرطة) سائحًا ..

ثانيًا : يستقبله (منيلاوس) بحفاوة شديدة باعتباره ابن ملك ، ويضيفه فى قصره ..

ثالثًا : نظرة ساهمة حالمة جانبية إلى (هيلين) ؛ بالإضافة إلى سحر (أفروديت) القاتل ، وسرعان ماتقع (هيلين) ـ الزوجة العاقلة ذات العقل الراجح والخلق القويم ـ فى غرام الوافد الجديد ..

رابعًا : تتدفق الكلمات من فمه كما يتدفق العسل من فتحة المجرور ـ لو كان شىء كهذا ممكنًا ـ ويعدها بالمجد والسعادة و ... والحب ..

إنهما سيرحلان معًا إلى (طروادة) بلده الجميل ، وهناك ستعيش ملكة .. صحيح أنها الآن ملكة فعلاً ، لكن هناك فارقًا كبيرًا بين ملكة لاتحب زوجها وملكة تحبه ..

خامسًا : يتم الفرار المهين تحت جناح الظلام .. والضيف قد فرّ مع امرأة مضيفه .

سادسًا : وهو الجزء المهم من كل هذا ، أن (منيلاوس) العظيم يكتشف الخيانة ، ويستشيط غضبًا .. ويصرخ فى رجال (إسبرطة) أن ملككم قد أهين .. علينا باللحاق بذلك الذئب الرقيع الذى لايعرف للبيوت حرمة ..

ويهب الإغريق ثائرين مغضبين لكرامتهم ، وتقلع السفن من سواحلهم قاصدة (طروادة) ، عازمة على خراب بيت (باريس) وبيت أبيه ..

لم لا ؟ وبين الإغريق أبطال من طراز (أخيل) و(نسطور) و(ديوميديس) و(تويسر) و(باتروكلوس) .. وكل واحد منهم مخيف مهيب من الطراز الذى يقدر على (إغلاق شارع) كما نقول فى مصر ..

دعك من أنهم تحت قيادة كابوس مخيف هو (أجاممنون) .. أخو (منيلاوس) ..

سابعًا : كانت السفن الإغريقية ألفًا ومائتين ، تحمل مائة ألف محارب إغريقى ، وكانت هذه هى البداية لحرب ضروس استمرت عشرة أعوام !

نعم .. أنتم لم تخطئوا قراءة الرقم !

عشرة أعوام ..

* * *

٣ - إنه لجحيم ..

صحت من دوامة أفكارها المفجعة على صوت خطوات ..

كان القادم هو (باريس) سبب المأساة كلها ، وكان يترنح وفى يده دنّ ثقيل ، ومن فمه يسيل النبيذ الطروادى الأحمر .. من الواضح أنه عاش عشرة أعوام فى غيبوبة دائمة ، وكابوس لا آخر له .. لو أمسكه الإغريق فلسوف ! أحيانًا يكون الموت ذبحًا هو أرق أنواع العقاب وأكثرها رحمة ..

مرّ بها دون كلمة ، ثم رأى (هوميروس) واقفًا جوارها ، فصاح بلا وعى :

- « هل المتسول الضرير هنا ؟ ماذا تفعل فى خدر زوجتى ؟ »

لم يهتزّ (هوميروس) بل قال بلهجة تشى بالازدراء :



مرّ بها دون كلمة ، ثم رأى (هوميروس) واقفًا جوارها ، فصاح بلا وعى :
- « هل المتسوّل الضرير هنا ؟ .. » .

- « لاشىء .. أكتب الشعر طبعًا »

دون كلمة واحدة مدّ الفتى يده إلى لحية الشيخ ، فلفها حول قبضته ، وراح يطوّح بجسده الهزيل يمينًا ويسارًا ، وهو يردد :

- « أعرف ما تريد .. أنت بانتظار لحظة هلاكى ، كى تكتب أروع قصائدك .. حين قبض الإغريق على (باريس) صنعوا به كذا وكذا .. لكنى أحذرك أيها العجوز .. لسوف أعيش بعدكم جميعًا .. ولن تكتب حرفًا عن وفاتى .. »

ثم ركله فى مؤخرته الهزيلة ، فطار الشيخ خارج الحجرة ..

هذا لا يطاق ؟ نهضت (عبير) محنقة وصاحت :

- « لو أن براعتك فى قتال أبطال الإغريق تعادل براعتك فى ضرب الشيوخ ، لكنا انتصرنا منذ سبع سنوات ! »

جرع المزيد من الدنّ الذى يحمله ، وقال مترنحًا :

- « لست بمحارب .. بل أنا عاشق ! ثم إن هذا الشيخ يستحق ، لأنه سيوسعنى سبًا فى أشعاره .. »

ثم - من دون مقدمات - نظر لها وقال :

- « عشرة أعوام ! لشدّ ما تغيرت يا عزيزتى ! لقد مرت الأعوام على وجهك شهرًا فشهرًا وساعة فساعة .. والآن أنظر لك فأعجب .. لا بد أننى كنت مجنونًا حين وقعت فى غرامك يومًا ! »

صعد الدم إلى رأسها ، وقالت وهى تحاول ألا تنفجر :

- « لست المجنون الوحيد .. هناك مجنونة كذلك تخلت عن كل شىء من أجلك ، وإننى لأتساءل عما يقوله زوجى لابنتى (هرميون) .. »

- « ماذا تتوقعين ؟ بالطبع يذكر اسمك مقرونًا بنعوت مشينة للغاية ! »

قالت فى عصبية :

- « ما زال كل شىء ممكنًا .. لقد جعلنى السحر أميل إليك ، لكنه قد زال الآن ، وما عليك إلا أن تفتح الأسوار وتسمح لى بالخروج لقومى .. »

طوّح بالدنّ ليصطدم بالجدار ، وأطلق ضحكة هستيرية :

- « هاه ! فات الأوان يا صغيرة .. إن هؤلاء الإغريق الواقفين خارج الأسوار ، لن يرضوا بشىء سوى الدم .. لن يعودوا لبلادهم قبل نهب آخر قطعة ذهب ، وقتل آخر صبى ، وسبى آخر فتاة فى (طروادة) .. وخروجك لن يدلهم إلا على خوار عزيمتنا ، ولسوف يعجل بالنهاية .. »

ثم نظر لها من جديد ، وانفجر ضاحكًا :

- « كل هذا .. هى .. هى .. من أجل .. هى هى .. واحدة مثلك ! هى هى ! »

ثم إنه تمدّد على الأريكة وسرعان ما راح يغطّ كالثور ..

نظرت له (عبير) فى غلّ ثم غادرت المخدع ..

* * *

ولأنها امرأة توقفت أمام أول مرآة صادفتها .. تأملت وجهها - وجه (هيلين) - فى اهتمام .. فلم

يكن إلا وجه حورية بارعة الجمال لايمكن وصفه لمن لم يره .. إذن عم يتكلم ذلك الخنزير ؟ شيخوخة ؟ هذا وجه لايشيخ ..

ثم فهمت الأمر .. الألفة تولد الازدراء ، وقد صارت بالنسبة له أبا هول بلا أسرار .. صارت لغزًا من ألغاز تجميع القطع Jigsaw ، وقد قام بتجميع أجزائها مرارًا من قبل ، حتى لم تعد تمثل له أية أهمية .. أهميتها الوحيدة الآن هى أنها السبب الذى سيمزقه الإغريق من أجله ..

على كل حال ؛ ليس مديح (باريس) كسبًا ، وليس انتقاده لك خسارة ..

* * *

اتجهت إلى سور (طروادة) العظيم ، ووقفت ترقب ساحة المعركة الرهيبة .. احتاجت إلى بضع دقائق حتى انقشع الغبار الذى ولدته سنابك الخيول ، والذى جعل الرؤية عسيرة على بعد مترين ..

أخيرًا ترى محاربًا طرواديًا عملاقًا يتقدم فى تؤدة

نحو صفوف الإغريق ، الذين ضربوا حصارهم حول المدينة ..

كانت له هيبة ، وإن الأرض لترتج تحت قدميه الثقيلتين ارتجاجًا .. ثم إنها رأت الإعجاب والفخر به فى عيون الجنود الطرواديين ..

وسمعت الاسم يتردد مرارًا :

ـ « (هكتور) ! (هكتور) ! »

ـ « ابن (بريام) الأكبر ! »

جاءها الصوت الواهن من ورائها فأجفلت .. ثم نظرت للوراء لتجد (هوميروس) العجوز يشرح لها تفاصيل المشهد الذى لايراه ، لكنه يسمعه ويشعر به ..

واصل الشرح قائلاً :

ـ « إنه أعظم محاربى (طروادة) ، وهو من استطاع دحر الإغريق عن المدينة تسعة أعوام كاملة .. »

كان (هكتور) العظيم يواصل التقدم فى تؤدة ، وفى طريقه كانت صخرة بارتفاع طفل صغير ، فرفع

قبضته وهوى عليها ليهشمها إلى غبار .. فشهق القوم منبهرين ..

- « إنه أخو (باريس) .. وهو غير فخور بأخيه على الإطلاق ، لكنه يخوض هذه الحرب مضطرًا ، وإلى حدّ ما هو يفهم الإغريق وربما يتمنى لهم النجاح ! »

* * *

الآن يقف (هكتور) فى مواجهة صفوف الإغريق ، فيلوّح بسيفه صائحًا ، بيونانية عتيقة جدًا لكن (عبير) فهمتها :

- « أيها الإغريق ! إننى أدعو أشجعكم وأقواكم إلى المبارزة .. فإن قتلنى فعليه أن يردّ جثمانى إلى قومى ، وإن قتلته رددت جثمانه إلى قومه ! »

مالت (عبير) على (هوميروس) وسألته :

- « ما موضوع الجثمان هذا ؟ »

- « لا أحد يحب أن تقع جثته فى يد الأعداء هنا ،

لأن التمثيل بالجثث من الرياضات المحببة .. وفى العادة يربطون الجثة خلف عربة حربية ، ويدورون بها ست أو سبع مرات حول ساحة القتال ! »

هزّت رأسها علامة الفهم ، وعادت ترمق الميدان ..

كان الإغريق حائرين متهيبين ، وبدا واضحًا أنهم يخافون الرجل حقًا ، وأنهم يعرفون أن من يقبل التحدى لن يعود لأهله أبدًا ..

قال (هوميروس) :

- « للأسف ليس (أخيل) هنا ، ولو كان مع الإغريق لكان هو الجدير بقبول هذا التحدى .. لا أحد مثل (أخيل) فى هذا الميدان كله .. »

حدثت ضوضاء بين الإغريق ، وفهمت (عبير) أنهم يجرون قرعة لمعرفة من يبارز (هكتور) ثم ظهر البطل المنتظر .. كان ضخمًا قويًا له لحية حمراء ثائرة كالنار ، ولوّح برمحه فى السماء وهو يقهقه بوحشية ..

- « (أياس) ! (أياس) ! »

كذا تعالت صيحات الإغريق فارتجت لها الأرض ..

وببطء دنا البطلان من بعضهما .. وبعد لحظة حاول كل منهما فيها أن يزن خصمه جيدًا ، طوّح (أياس) برمحه نحو (هكتور) ، لكن هـذا الأخير رفع درعه ليتلقى الرمح الذى اخترق الدرع لكنه لم يؤذ حامله ..

وجاء الدور على (هكتور) فرمى برمحه ، ولم يصب (أياس) لكنه خدش خصره ..

ومن مكانها فوق الأسوار فهمت (عبير) أن هذا النوع من المبارزة له طقوس خاصة ، يتم فيها استخدام كل أنواع السلاح .. فكما يحدث فى المآدب حين تقدم المشهيات أولاً ثم الحساء ثم الطبق الرئيسى ، يتم هنا استخدام الحراب أولاً ثم السهام ثم السيوف ..

وهالها أن الجميع يرمقون ما يدور باستمتاع حقيقى ، كأنها مباراة رياضية تنتهى بالفوز بالكأس لا بموت أحد الرجلين ..

الآن جاء دور السيوف ..

انطلق الرجلان نحو بعضهما ، بينما الشمس

تنحدر غربًا ، والرؤية تزداد عسرًا .. وارتطم السيفان فكان لهما دوىّ أى دوىّ .. وكان لهما بريق أى بريق ..

وراح الرجلان يدوران حول بعضهما ، وهما يلهثان كثورين ، ومن حين لآخر يحاول واحد منهما أن يجد فى دفاع الآخر تلكم الثغرة القاتلة التى ستكون نهايته ..

الآن صارت الشمس عند الأفق وقد توارى ثلاثة أرباعها ..

هنا وثب رجل يحمل عصا ما بين البطلين ، وصاح :

ـ « كفاكما أيها البطلان ! إن الليل قد جاء ، وقد خضتما قتالاً عنيدًا ، لكن من الواجب أن ننهى القتال لنكمله غدًا .. »

قال (هكتور) وهو يعيد سيفه لجرابه لاهثًا :

ـ « الحق أن (أياس) محارب شجاع شهم ، وإننى لأرى أن ننهى القتال الآن ونستأنفه غدًا .. أما الآن فيمكننا أن نتبادل الهدايا ، ليعرف الناس أننا افترقنا صديقين .. »

وهكذا حيا كل من البطلين صاحبه ، وتبادلا هدايا رمزية ، ثم عاد كل منهما إلى قومه ..

الحقيقة أن أخلاق هؤلاء القوم لم تكن تخلو من فروسية نبيلة لاشك فيها ، وإن كان من الغريب فهم كيف تهدى هدية لرجل ليلاً ، ثم تقتله أو يقتلك صباحًا ..

لكن هذه هى الأخلاق التى تروق للشعراء مثل (هوميروس) ، وبالتأكيد تروق للفتيات مثل (عبير) التى راح قلبها يخفق ، واحتشدت العبرات فى عينيها ..

وعادت إلى خدرها ، فوجدت (باريس) مازال راقدًا على ظهره على الأريكة ، يغطّ فى نومه كدبّ قطبى ..

بدا لها رخوًا مبتذلاً لايمت للرجولة بشىء .. لو كان هذا رجلاً فمن هؤلاء العمالقة الذين امتلأت أجسادهم بالجروح بدلاً من الشعر ، والذين عادوا إلى خيامهم الآن ؟

لابد أنها كانت مجنونة يوم وقعت فى هواه يومًا ..

لكن لا .. لم تكن هى المجنونة بل (هيلين) .. والمشكلة الآن أن حلّ المشكلة يقع على عاتقها هى ..

ولكن ماذا بوسعها أن تعمل ؟

* * *

لا تدرى متى انفتح باب المخدع ..

وفى الظلام ـ ومن أثر النور ـ لم تستطع أن تتعرف ملامحه جيدًا ، وخطر لها أنه المرشد الأحمق ، لكن لا .. المرشد لايعتمر قبعة ذات جناحين ..

همست فى توجس :

ـ « من أنت ؟ ماذا تريد ؟ »

وهمت بشدّ الحبل المجدول الذى يستدعى الحرس ، لكنه قال فى صوت هادئ رزين :

ـ « لاتهابى يا (هيلين) .. أنا (هرمز) .. إنهم يريدونك فى (الأوليمب) !

* * *

٤ ـ ساعة مع (زيوس) ..

مهما كان رأيك فى الموضوع ؛ فإن رحلة إلى (الأوليمب) وسط الظلام ، بينما السحب الرمادية تتطاير من حولك ، وأنت متشبث بصدر (هرمز) .. والجناحان فى قبعته وحذاءيه يخفقان باستمرار ، وتتساءل أنت فى حيرة : كيف لا تطير القبعة تاركة صاحبها ؟ لكن هذا ـ ببساطة ـ سؤال جدير بمن لا يعرف الأساطير الإغريقية ..

مهما كان رأيك فى الموضوع ؛ فإنها مغامرة نادرة ..

* * *

وعلى جبل (الأوليمب) الذى اشتق (الأولمبياد) من اسمه ، يوجد القصر المنيف المحاط بالسحب .. تترجلين وتقفين لاهثة الأنفاس محتقنة الوجه ، حتى إنك لا تلاحظين كثيرًا مدى برودة الجو ..

ثمة مجموعة من العذارى يلعبن ويتقاذفن الورود ـ كما هى العادة فى الأساطير اليونانية ـ وثمة كلب ذو رأسين ، و (أبوللو) يقف جوار عربته ذات الجياد يتأكد من أنها صالحة للقيام برحلة شروق الشمس .. تذكرته (عبير) على الفور وتذكرها .. فقد تقابلا مرة ، بل إنها قادت عربته مرة وهوت بها فى البحر ..

قال لها (أبوللو) وهو يفحص حافر أحد الخيول :

ـ « أسرعى .. إن (زيوس) بالداخل ! »

أسرعت الخطى ومن خلفها (هرمز) .

ثمة قاعة واسعة تحيط بها الحفر المليئة بالنار ، وثمة عذراء تعنى بنيران كل حفرة منها .. وأكثر من طاووس ..

وفى صدر القاعة كانت هناك درجات تقود إلى منصة عالية ، عليها جلس الأخ (زيوس) الرهيب ، بلحيته المجعدة وعينيه الشرستين ، كما يراه من زار المتحف الرومانى فى الإسكندرية ..

كـانت تقـف بجـواره سـيدة ثقيلـة الظـلّ قويـة الشخصية ، لا تحتـاج إلى تعريف .. إنهـا (هيرا) زوجته التى يخافها كثيرًا .

عن يسـاره كـانت فتاتـان جميلتـان ، وإن كـانت واحدة منهما حسناء إلى درجة مذهلة ، وكان يتعلق بثوبها رضيع مجنح (ملظلظ) بشدة ، وعلى ظهره جعبة سهام ..

هذه الأخيرة أيضًا لا تحتاج إلى بطاقـة تعريـف .. هذه هى (فينوس) ومعها ابنها (كيوبيد) ..

وجوار (زيوس) كذلك كانت رقعة كرقعة الشطرنج .. أقرب إلـى غطـاء علبـة أحذيـة ملأهـا طفل بالرمـال ليغرس فيها نماذجه .. وكانت حجـارة الشـطرنج تمثـل محاربين يحملون رماحهم وسيوفهم ، وقد انتـشروا حول أسوار مدينة صغيرة ..

قال لها (زيوس) بصوت رنان ارتجت له القاعة :

- « مرحبًا يا (هيلين) .. لقد تأخرت ! »

* * *

دنت منه شاعرة بالرهبة ، فهو شـخصية أسطورية لاوجود لها ، لكنها تلعب الآن بقواعد (فانتازيـا) .. سمعت جلبـة معدنيـة صـاخبة مـن اليسـار ، فنظـرت لتجد حدادًا ضخمًا يقف أمام سندان هائل ، وهو يدق على سيف ساخن فيتصاعد منه الشرر والدخـان فـى كـل صـوب .. كتلـة مـن العضـلات والعرق تصـارع الحديد فتقهره ..

قال لها (زيوس) :

- « هذا (فولكانو) .. عاكفًا على صنع الأسلحة اللازمة لـ (أخيل) .. »

رفـع (فولكاو) السيف ليتأمله ، ثم أطلق صرخـة عدم رضـا ووضعه على السندان من جديـد ، وهـوى عليه بضربة أخـرى .. لاغرابة إذن فى أن القدمـاء أطلقوا اسمه على البركان .. وهو شبيه الجبل الـذى يقذف الحمم والنار والرعد ..

تناول (زيوس) أحد التماثيل من أمامه وقال :

- « الحق أننى أحب (أخيل) .. ذلك البطل الإغريقى

الهمام ، وابن جنية البحر (ثيتس) .. وهى التى غمسته فى طفولته فى مياه نهر (سيتكس) كى يصير منيعًا لا تخرق السهام جلده .. لكن البائسة تركت نقطة ضعف واحدة فى جسده ؛ هى كعبه الذى كانت تمسك به وهى تدليه فى النهر .. وهذا الكعب هو الذى سيكون سبب موته ، ولسوف يطلق البشر الفانون مصطلح (كعب أخيل) على نقطة الضعف فى أى نظام دفاعى صارم .. »

ثم وضع التمثال وتأمل تمثالاً آخر ، وقال :

- « وهذا .. (هكتور) العظيم بطل (طروادة) الذى تورط فى حرب لم يردها ، لكنه كان مضطرًا إلى أن يواصلها إلى النهاية .. »

وشرد من جديد .. ثم وضع التمثال وأشار إلى آخر :

- « وهذا .. (نسطور) و(ديوميدوس) و (بارتلوكوس) .. كلهم أبنائى ، وأبطال لم تر الأرض لهم نظيرًا ، وكلهم يخوض حربًا لا يريدها ، من أجل فتى رقيع وفتاة جميلة .. فتاة مثلها كثيرات .. »

هنا تدخلت (هيرا) الواقفة جواره لتقول فى غلّ بارد :

- « إنه فتى أبله .. وهو لا يعرف الجمال حين يراه ! »

- « لا أوافقك على هذا يا مدام .. »

كانت هذه من (فينوس) التى تعرف بالطبع أن حقد (هيرا) ليس موضوعيًا .. إن أية امرأة لاتنسى أبدًا إهانة تفضيل غيرها عليها ..

قالت (عبير) مرتبكة :

- « لا أدرى ما أقول .. لكن جمالى ليس ذنبى .. »

قال (زيوس) فى حزم :

- « لكن فرارك من زوجك ذنبك .. وهو ما أشعل جذوة حرب الأعوام العشرة هذه .. »

هنا تدخلت (هيرا) فى سماجة بطريقتها المسمومة :

- « لم يكن ذنبها ، لكنه ذنب السحر الذى أفقدها عقلها .. »

وكانت تشير بطرف عينها إلى (فينوس) ..

هنا صاح (زيوس) بحزم :

ـ « لكن .. أنا أمنع أية خلافات بينكن ، ولا أريد مصارعات ديكة .. لقد نشبت الحرب وانتهى الأمر ، لكن علينا أن نحقن الدماء .. »

طبعًا من نافلة القول أن نؤكد أن (هيرا) و (مينرفا) كانتا تريدان النصر للإغريق ، بينما (فينوس) كان يهمها انتصار (طروادة) ونجاة (باريس) .

وماذا عن (زيوس) ؟ إنه محايد لكن قلبه كان يتحرك باستمرار نحو الإغريق ، لأنه مفتون بهم .. وإن كان هذا الميل سينقلب سريعًا مائة وثمانين درجة ..

قال لـ (عبير) وهو يضع تمثالاً جديدًا على الرمال :

ـ « عليك يا (هيلين) أن تنهى هذه الحرب .. »

ـ « أتمنى .. ولكن كيف ؟ »

ثم فكرت قليلاً ، وقالت :

ـ « ربما لو هربت من (طروادة) ولحقت بزوجى الأول (منيلاوس) .. »

ـ « فكرة حمقاء .. »

قالها (زيوس) ملوّحًا بكفه ، وأردف :

ـ « لقد هوت الصخرة من عل ، ولسوف تستمر فى الانحدار لأسفل .. إن الإغريق لن يرضيهم سوى الظفر بـ (طروادة) بعد حصار عشرة أعوام ، سواء كنت فيها أم معهم .. ولن يعودوا لسفنهم معتذرين وينسوا الأمر .. »

قالت (فينوس) وهى ترمق (عبير) بحنان :

ـ « لكن ماذا بوسع الفتاة أن تفعل ؟ »

قالت (هيرا) فى صلف :

ـ « هى مشكلتها وعليها أن تحلها ! »

قال (زيوس) وهو يحك خصلات لحيته المجعدة :

- « أعتقد أن الحلّ الوحيد هو أن يسلّم (باريس) نفسه للإغريق ، وليفعلوا به ما يريدون ! »

شعرت (عبير) بدهشة .. إن (الميثولوجيا) الإغريقية اختلقت آلهة لهم ضعف البشر ، ويغارون ويشعرون بحيرة ويختلفون ويندمون .. وهى صورة تختلف كثيرًا عن صورة الإله القدير المطلق الذى تدعو الأديان السماوية لعبادته ..

قالت (عبير) شاعرة بالعجز :

- « لن يقبل .. فهم سيحولونه إلى سجق بمجرد أن يروه .. »

- « لا ألومهم على هذا .. لكن عليك أن تجعليه يقبل .. »

وبيده الضخمة أطاح ببعض التماثيل المغروسة فى الرمال ، وصاح :

- «كفانا هذا السخف ، ولتنته كل هذه الدماء .. كأنما ليس لدينا من الأعمال هنا إلا حرب (طروادة) .. »

هنا شعرت بـ (هرمز) يجذب كمها برفق ، ففهمت أن المقابلة انتهت ..

وحين خرجت من القصر الدافئ ، رأت اليونان كلها عند قدميها مسربلة بالسحب التى بدأت تصطبغ بلون الشروق الأرجوانى ..

شعرت ببعض البرد وارتجفت تحت ثوبها الإغريقى الخفيف ..

قال لها (هرمز) وهو ينظر للسماء :

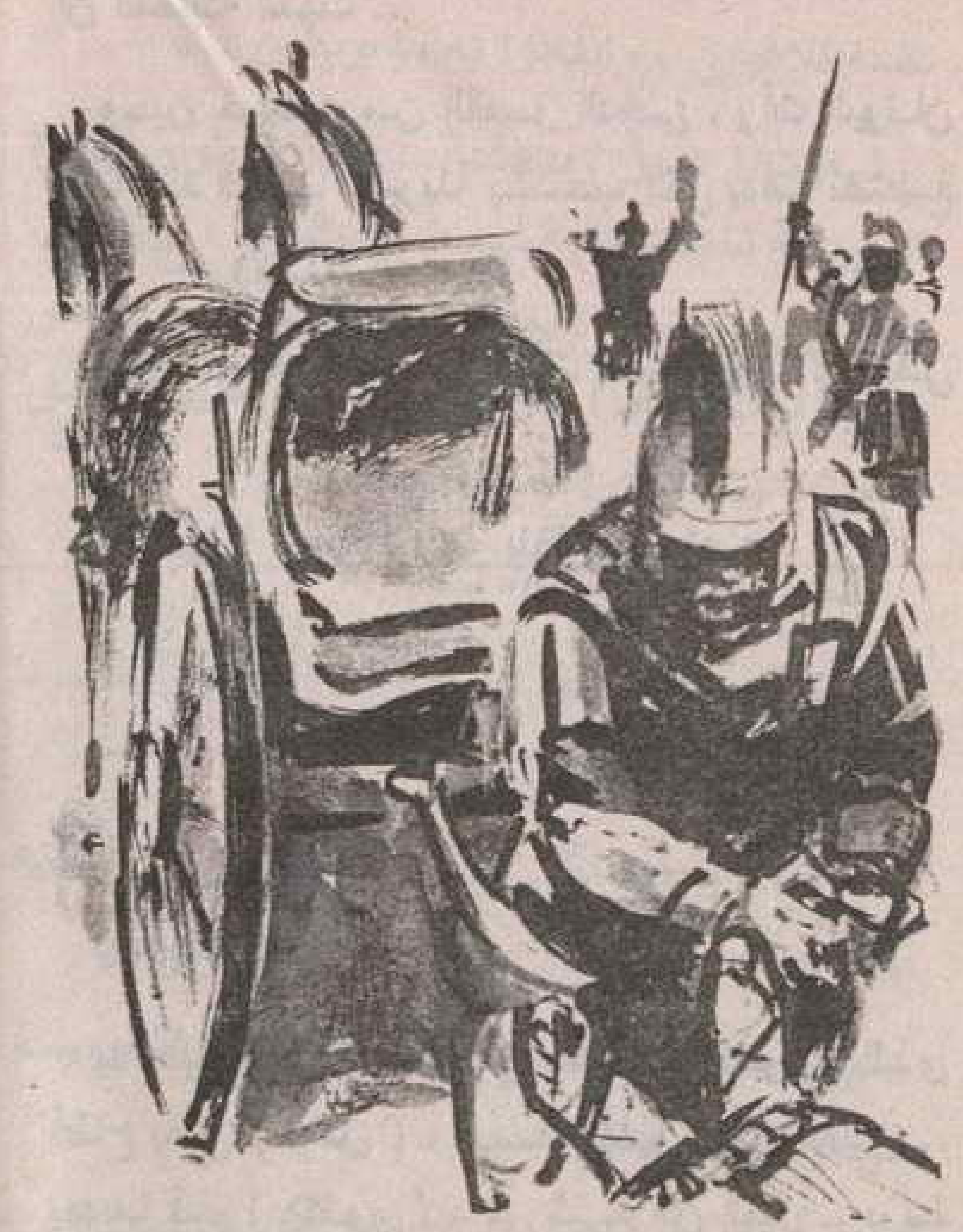
- « مستعدة للعود ؟ »

- « مستعدة .. »

* * *

يوم جديد فى الحرب ..

بدأ اليوم بمشهد دامٍ هو سيف (هكتور) الذى أطاح بعنق (أياس) ، وسط تهليل الطرواديين .. بعدها قام (هكتور) - فى شىء من الملل - بربط جسد البطل الإغريقى إلى مؤخرة عربته الحربية ،



بعدها قام (هكتور) - فى شىء من الملل - بربط جسد البطل الإغريقى إلى مؤخرة عربته الحربية ..

وانطلق إلى الميدان يدور مرة واثنتين وثلاثًا .. بينما الغبار يتصاعد إلى عنان السماء ..

إن (هكتور) لايحب التمثيل بالجثث ، لكن التقاليد هى التقاليد .

بعد انتهاء هذه الضوضاء ، عاد للحياة إيقاعها العادى المملّ : قتل وذبح وبقر بطون وبتر أعضاء .. باختصار الروتين اليومى الذى ظلوا يمارسونه ٣٦٥٠ يومًا حتى هذه اللحظة ..

وقفت (عبير) فى مكانها المفضل خلف الأسوار ، وجوارها وقف (هوميروس) العجوز يلهث ويمضغ ذلك الشىء الغامض الذى يمضغه الشيوخ ..

كان كالذبابة منيعًا على الطرد ، ولابد أن (باريس) تخلص منه عشرين مرة على الأقل ، لكنه يعود دائمًا ، لاتدرى كيف ولا من أين ..

سألته وهى تقذف لفمها ببعض حبّات العنب :

- « أين (أخيل) هذا ؟ وما سرّ الاهتمام به ؟ »

صاح فى حماس :

ـ « (أخيل) ؟ ومن مثل (أخيل) ؟ إنه الغائب الحاضر هنا ، وهى مشكلة خلاف على الغنائم معتادة فى هذه الحروب ، لكنها حرمت الإغريق من (أخيل) ، وهو جيش جرار فى حدّ ذاته ! »

* * *

القصة ـ والعهدة على (هوميروس) ـ أن خلافًا شديدًا نشب بين (أجاممنون) و (أخيل) ..

ـ (أجاممنون) كما قلنا هو قائد هذه الحملة ، وأخو (منيلاوس) .. إنه رجل شديد الحماس ، إلى درجة أنه حين هبت العواصف على (أوليس) مهددة بأن تمنع السفن الإغريقية من الإقلاع ؛ قرر هو أن يسترضى الربة (أرتميس) عن طريق ذبح ابنته العذراء الجميلة (إيفجينا) .. وثمة فيلم سينمائى رائع يحكى هذه القصة ، قدمه المخرج اليونانى العظيم (كاكويانيس) ..

أما الشاعر اليونانى القديم (إسخيلوس) ، فقد حكى حياة (أجاممنون) الصاخبة فى مسرحيته (أوريستيا) ..

إن الأساطير الرومانية ـ كما ترون ـ كانت مصدر رزق لملايين الأدباء الذين أعياهم البحث عن فكرة جديدة ، ومنهم بالطبع كاتب هذه السطور !

لأسباب معقدة تتضمن غضبة (أبوللو) على الإغريق ، كان على (أجاممنون) أن يعيد أسيرة طروادية حسناء هى ابنة كاهن (أبوللو) ، ورغبة منه فى تعويض نفسه ، قرر أن يستأثر بأميرة طروادية حسناء هى (بريزيس) ، وكانت هى الأسيرة المفضلة عند (أخيل) ..

(الملاحظ أن هؤلاء القوم كانوا يجمعون الأسيرات الجميلات ، بنفس المنطق الذى نجمع به نحن طوابع البريد أو الفراشات الغريبة) .

كاد (أخيل) يجنّ ويهشم رأس قائده ، لكن (منيرفا) ـ الحكمة ـ هبطت من عل ، وطيبت خاطره ، ولابد أنها قالت له أشياء على غرار : لتكن أنت الكبير .. كده ما يصحش .. إمسحها فىّ .. الخ .

هنا فقط قمع (أخيل) غضبه ، وأعاد السيف إلى

جرابه ، ونظر إلى (أجاممنون) فى غيظ وقال وهو يلهث :

ـ « أيها الجبان .. نراك وقت الوغى فى مؤخرة الصفوف ، ثم إذا جاء وقت اقتسام الغنائم نراك فى المقدمة .. ليكن .. خذ .. (بريزيس) كما تشاء .. لكن سيفى لم يعد سيفك منذ هذه اللحظة .. »

نظر له (أجاممنون) غير مصدّق ، فقال (أخيل) :

ـ « وعما قريب .. عما قريب .. سيظفر بكم (هكتور) العظيم ويمزق صفوفكم ، وعندها سوف تبحثون عن (أخيل) فلا تجدونه .. »

ثم نظر إلى الإغريق من حوله ، وهزّ رأسه محييًا :

ـ « إخوانى .. أرجو أن تسامحونى ، فما تخليت عنكم ولكنى نفرت من طمع (أجاممنون) وجشعه .. »

ثم انصرف شامخ الرأس ، كله كبرياء ..

انتظر (أجاممنون) بعض الوقت حتى هدأت ضربات

قلبه ، واطمأن إلى أن صوته لن يرتجف وهو يتكلم ، وقال لأحد الرجال من حوله :

ـ « (أوديسيوس) ! اذهب لخيمة (أخيل) وهات لى أسيرته (بريزيس) .. بعد هذا خذ سفينة وضع عليها مائة رأس من الغنم ، وابنة كاهن (أبوللو) .. وأعد هذه الأخيرة مع الهدايا إلى أبيها .. لعل (أبوللو) يصفح عن الإغريق .. »

كان (أوديسيوس) هذا من أبطال الإغريق ، ولو تأملنا وجهه بعناية للاحظنا أن له نفس ملامح (شريف) زوج (عبير) ..

تذكروا هذا الفتى جيدًا .. إن ملحمة (الأوديسة) بأكملها ليست إلا قصة عودته إلى وطنه وزوجته[*] ..

أما الآن فنحن فى صميم ملحمة (الإلياذة) .. موقف (أخيل) من جشع قائد ، واتخاذه عزلة اختيارية بعيدًا عن رفاقه فى السلاح ..

(★) راجع قصة (عودة المحارب) .. ماذا ؟ لم تصدر بعد ؟ إذن اقرأها حين تصدر !

كان (أخيل) هو القادر على فتح (طروادة) ، وكان (هكتور) هو القادر على منع هذا الفتح عشرة أعوام ..

فهل يلتقى الرجلان ؟

* * *

٥ ـ ديكان !

ما زلنا إذن مع (هوميروس) ، وهو المعادل القديم لنشرة CNN الإخبارية :

لقد انتشرت القصة بين صفوف الإغريق كالنار فى الهشيم ، وراح البعض يلطم خديه أو يدفن رمحه فى جذع أقرب شجرة ..

لقد تخلى عنا (أخيل) ، والسبب هو (أجاممنون) ..

والمشكلة فى الجيوش الغازية التى تحارب بعيدًا عن أرضها ، هى ضعف الحافز القتالى إلى حدّ ما ، بينما الجيوش المدافعة عن أرضها تجد المبرر الأخلاقى الكافى للحرب .. وقد تبين (نابليون بونابرت) هذه الحقيقة بنظره الثاقب ، وقال : « إن الجيش يُهزم حين يقول أول جندى : لقد هزمنا .. »

وتكرر هذا السيناريو حرفيًا مع الإغريق ..

(أخيل) تخلى عنا ! لا يمكن أن ننتصر من دون (أخيل) ..

وسرعان ما التف الرجال حول السفن ، وبدأت هذه الأخيرة تعدّ قلوعها ، وأدرك (أجاممنون) أن الحملة فشلت .. يا ليته ما خضع لكبريائه المجنون ! ويا ليته هادن (أخيل) ..

هنا كان (أوديسيوس) قد عاد بعدما أرجع أسيرته الحسناء لأبيها .

وجد الأمور على ما هى ، فراح يركض بين الجنود يبشرهم بالنصر ، وبأن الإغريق قادرون على النصر بـ (أخيل) أو من دونه ..

وعند الشاطئ اعتلى صخرة عملاقة ، وصاح :

ـ « أيها الإغريق .. ليكن .. يمكنكم أن تعلنوا الهزيمة وتعودوا لدياركم ، وبهذا تكون تسعة أعوام ونصف قد ضاعت سدى .. لكن من أدراكم أن النصر ليس بقريب ؟ تذكروا نبوءة العراف (كلكاس) .. لقد رأينا جميعًا مشهدًا عجبًا .. فهل تذكرونه ؟ »

هنا صاح أحد المحاربين :

ـ « نعم .. رأينا أفعى تلتهم تسعة أفراخ طير ، ثم تنهى وجبتها بالأم التى جاءت تحاول أن تنقذ أطفالها .. وبعد هذا تحولت الأفعى إلى حجر .. »

ـ « عظيم ! وماذا قال العراف ؟ »

قال محارب آخر :

ـ « قال إننا نحارب الطرواديين تسعة أعوام ، ونهزمهم فى العاشر .. »

شاعت ابتسامة واثقة على وجه (أوديسيوس) القسيم ، وقال :

ـ « هكذا ! فلا تكونوا كالأحمق الذى يهوى بمائة ضربة على صخرة دون أن تتفتت ، فيقنط ويرحل .. ثم يجىء واحد يهوى بالضربة الأولى بعد المائة ، فتنهار الصخرة ويتفجر الينبوع .. ما كانت الضربة الأخيرة هى التى فجرته ، ولكن المائة ضربة السابقة .. هل فهمتم ماذا أقول ؟ »

وكما يحدث عادة فى هذه الأمور ، عمت الفوضى ،

وتفشت ظاهرة الإشعاع السايكوفيزيائى ، وتطايرت الرماح فى الهواء مع الهتاف للإغريق .. لابد أن هذا المشهد راق لـ (مينرفا) و(هيرا) جدًا ..

وهكذا عادت الحرب تضطرم فى أوارها ..

* * *

دخلت (عبير) / (هيلين) على زوجها الجديد (باريس) ، وهو جالس أمام المرآة يتبرّج ..

نعم .. لا مزاح هنا ولا يوجد خطأ مطبعى .. كان (باريس) يتزين أمام المرآة ، وهى ليست عادة غريبة بالنسبة للشعوب القديمة ، لكن الغريب أن يجد مزاجًا رائعًا يسمح بهذا ، بينما صوت صهيل الخيل وضراب السيوف يصمّ الآذان ..

قالت له بصوت كسير :

ـ « (باريس) .. لسوف يستمر هذا إلى الأبد .. »

وضع المزيد من الكحل عند طرفى عينيه ، وقال وهو ينظر لها فى المرآة :

ـ « والمطلوب ؟ »

ـ « المطلوب أن نضع له حدًا .. »

ـ « وكيف ؟ هل مازلت تفكرين فى الذهاب لهم ؟ »

ابتلعت ريقها ، وقالت :

ـ « بل أفكر فى أن تذهب أنت لهم ! »

ألقى بالمكحلة فتناثر المسحوق الأسود فى كل صوب ، والتفت لها وعيناه مفعمتان بالتوحش ، وصاح :

ـ « هل جننت يا امرأة ؟ »

ـ « لم أجن .. لكنهم سيظفرون بك على كل حال .. فلماذا لا تفعل هذا الآن وتصون دماء أبطال (طروادة) و(أثينا) ؟ »

ـ « سيحولوننى إلى عجين بمجرد أن يروا سبابة إصبعى .. »

تحاشت نظراته ، وقالت بصوت مبحوح :

ـ « ليس هذا ما أريد .. أريد أن تخوض مبارزة

شريفة مع (منيلاوس) .. مبارزة بين خصمين شجاعين ، ونتيجة الحرب هى ذاتها نتيجة المبارزة .. »

بدا عليه الشرود ، وبدا أنه لايرفض الفكرة تمامًا .. ليس (منيلاوس) مرعبًا إلى هذا الحدّ .. على الأقل هو ليس (هكتور) .. ثم إن فكرة الانتحار لم تعد مستحيلة بالنسبة للفتى .. وهذه فرصة مناسبة لانتحار شريف .. سيذكره التاريخ بالخير على الأقل ..

عاد يضع المساحيق على خديه ، وقال :

ـ « سأفكر فى هذا .. أعدك .. »

* * *

جلست فى مخدعها تخيط مفرشًا عملاقًا ، تحكى عليه بالرسوم قصة صراع الإغريق والطرواديين ، وهى عادة مقدسة لدى نساء الأساطير الإغريقية .. لابد من مفرش أو سجادة ما ، وفى الكتيب القادم نجد (بنيلوب) منهمكة فى التطريز بانتظار عودة (أوديسيوس) ..

جاءتها وصيفتها (إيزيس) ، وقالت لها إن (بريام) العجوز ـ حماها وأبا (باريس) ـ يريدها أن تلحق به فى الشرفة .. وضعت النسيج مهمومة ، ومشت مع الوصيفة عبر ردهات القصر الذى تحول إلى ثكنة عسكرية ..

كان (بريام) العجوز رفيقًا بها من البداية ، ولم يعاملها كغانية إغريقية كما عاملها الطرواديون .. كانت سنه قد علمته أن يسامح الضعف البشرى ، ثم إنه كان يعرف أن لـ (فينوس) دورًا فى هذا كله ..

جلس عند الأسوار فى مكان يشبه الطابية ، وهشّ لها قائلاً :

ـ « تعالى لترى قومك الإغريق .. إننى من هنا أراهم بوضوح تام حتى لأكاد ألمسهم .. للأسف أنا شيخ ولا أخوض القتال ، لهذا أتمنى لو عرفتنى أسماء هؤلاء .. »

أشارت إلى الساحة وقالت :

ـ « هذا .. كتلة العضلات هذه .. هذا هو (أجاممنون)

شقيق من كان زوجى .. أنا لا أرى (أخيل) ، ومن الواضح أنه اعتزل القتال فعلاً .. أما هذا فهو (أوديسيوس) .. أقوى بطل لديهم بعد (أخيل) والأكثر نبلاً .. و ... »

هنا فوجئت برجل طروادى يظهر تحت الأسوار ، وهو يلوّح بقطعة قماش بيضاء هى من ثوب (أبوللو) ، وهذا يجعل حياته مقدسة ..

صاح الرجل فى الصفوف .

- « أيها الإغريق ! »

فتجمد الجميع فضولاً ، بينما أردف الرجل :

- « إن ابن ملكنا (باريس) لراغب فى مبارزة (منيلاوس) ملككم .. والنصر للجيش الذى يبقى بطله حيًا »

صاحت (عبير) بصوت مبحوح :

- « ياللهول ! »

بينما قال (بريام) فى شىء من رضا :

- « غريب ! للمرة الأولى يتصرف (باريس) كالرجال .. لقد حان الوقت .. »

ثم ارتجفت شفته السفلى وغمغم :

- برغم أن نتيجة القتال معروفة سلفًا ! »

- « لمه ؟ إن (منيلاوس) ليس (أخيل) .. »

- « أى شخص فى العالم يستطيع هزيمة ابنى وقتله ! إنه لم يبرع فى حياته إلا فى التهام الزيتون ! »

ثم نهض والرجفة لا تفارقه ، وقال :

- « على الأقل سيموت رجلاً ! لكنى لن أنتظر لأرى ! »

وهكذا وقفت (عبير) وحدها ترمق آخر فصول المأساة ..

* * *

الآن يقوم الرجلان بتقديم القرابين ، ثم يقفان متباعدين فى الميدان ، وحولهما الجيوش تتلاطم وتفور حماسة ..

كان التحدّى بين رجلين مهمين فى حياتها : زوجها الأول وزوجها الثانى ، لكنها وجدت أنها متحمسة بحق للأول .. تمنت أن يطير عنق (باريس) ، ثم ليأت بعد هذا ليطير عنقها هى ، فهى لاتستأهل غير هذا ..

كان (باريس) شاحب الوجه ، لكن فيما عدا هذا نشهد أنه كان متماسكًا ثابتًا .. لقد استطاع ترويض نفسه بمعجزة ..

- « الرمية الأولى من نصيب (باريس) .. »

الجزء الأول من المأدبة هو رمى السهام ، وقد صوب (باريس) سهمه نحو عنق (منيلاوس) ، لكن يده ارتجفت فطاش السهم ..

جاء دور (منيلاوس) ولم ترتجف يده ، لكنه كان يرغب فعلاً ألا يموت (باريس) بهذه البساطة .. وطاش السهم ..

الجزء الثانى هو السيوف ..

وفى هذه المرة كانت اليد الطولى طبعًا لـ (منيلاوس) .. لقد استلّ سيفه الثقيل وانقض على الفتى ، وهوى على رأسه بأقوى ما استطاع ..

هنا أنقذت الخوذة حياة (باريس) ، وتهشم السيف إلى نصفين ، عندها لم يجد (منيلاوس) بدًا من القبض على الخوذة ، وجرّ الفتى جرًا فوق التراب ، بينما هذا الأخير يولول :

- « ماما ! ماما ! »

وراح يحاول التملص بشكل مضحك ، حتى إن الطرواديين أنفسهم انفجروا يضحكون وقد دمعت عيونهم ..

أخيرًا انقطعت سيور الخوذة ، وتحرّر الفتى ..

- « تبًا ! إن هذا الفتى لايموت بسهولة كالثعابين ! »

قالها (منيلاوس) ، وجرى إلى صفوف رجاله ليجلب رمحًا ، وبالطبع لم يكن ينوى أن يسلك به أسنانه ..

هنا قررت (فينوس) أن المزاح طال ، وأن

(باريس) لن ينتصر بالتأكيد فى هذا القتال ، لذا نزلت من (الأوليمب) وأطلقت نفخة قوية ، جعلت الفتى خفيًا وسط ضباب كثيف .

وعبثًا راح (منيلاوس) يفتش عن (باريس) ، لكن بدا كأن هذا الأخير تلاشى ..

شعر كثيرون بخيبة أمل مريرة ، فقد منوا أنفسهم برؤية جثة الفتى مجرورة وراء مركبة (منيلاوس) ، والغريب أن أكثر هؤلاء كانوا طرواديين ..

وقف (أجاممنون) ، وكانت لوقفته دائمًا هيبة تخرس المتقاتلين والصاخبين على الجانبين ، وصاح بصوت جهورى :

ـ « ربما لم يمت (باريس) ، لكنه هزم .. والآن يأهل (طروادة) حان الوقت كى تعيدوا لنا (هيلين) وجزية مناسبة .. هكذا كان اتفاقنا .. »

* * *

٦ ـ أين (أخيل) ؟

هنا انطلق سهم ..

انطلق يصفر فوق الرءوس ، ثم استقر فى كتف (منيلاوس) ..

من أين جاء السهم ؟ لا أحد يعرف ، لكن (هوميروس) يقول إن (مينرفا) و(حيرا) كرهتا ألا تريا جثة (باريس) ممرغة فى الغبار ، ولم ترضيا أن يعمَّ السلام .. لهذا أغريتا راميًا طرواديًا اسمه (بندراسَ) بأن يقذف هذا السهم ..

وكان هذا خرقًا صارخًا لوقف إطلاق النار ، مما جعل ثائرة الإغريق تثور .. إن الطرواديين يلعبونها بقذارة .. الويل لهم !

وكما يمتزج الكحول بالماء ، امتزج الجيشان ، وفى هذه المرة لم يعد هناك نظام .. لقد صار كل واحد يضرب كل واحد آخر ..

النقع يتصاعد فى كل صوب .. والخيل تصهل وتبعثر سنابكها الجثث ، بينما بين الصفوف يمشى رجل قوى له وجه صلب كالصخر ، ملىء بالغضب .. والغريب أن أحدًا لم يتعرض له ..

ومن موضعها فوق الأسوار ، مالت (عبير) على (هوميروس) صائحة كى يسمعها :

ـ « من هذا ؟ معذرة نسيتَ أنك كفيف .. هناك رجل يمشى وسط الميدان ولا يُقتل .. »

ـ « هذا ؟ إنه (مارس) .. وهو المسئول عن إشعال الحروب ، وهو الآن فى ذروة نشوته .. يقولون إنه يعيش فى كوكب (المريخ) ، وحين يتعامد (عطارد) على (المريخ) حاجبًا نوره الأحمر يعمّ السلام .. »

ورأت (عبير) (مينرفا) تمشى بدورها وسط الصفوف ، وهى تشعل حماس الإغريق للمزيد من القتال ..

قالت لـ (هوميروس) :

ـ « يبدو أنه لا أحد فى (الأوليمب) الآن .. صدق (زيوس) حين قال إن هذه الحرب تستهلك أكثر وقته .. »

قال العجوز :

ـ « برغم أن (زيوس) منع الجميع فى (الأوليمب) من التدخل فى هذه الحرب ، ولابد أنه غاضب الآن .. »

هنا قذف أحد المحاربين نشّابة ثقيلة ، طارت فى الهواء ثم ارتطمت بخصر (مارس) فصرخ ألمًا ، وسال الدم منه ..

صاحت (عبير) وهى تضرب كفًا بكف :

ـ « إنهم يُجرَحون أيضًا ! »

لم يفهم (هوميروس) ما تتكلم عنه ، وغمغم فى غباء :

ـ « نعم ؟ طبعًا يُجرحون .. »

ونظرتْ إلى (مارس) وهو يحلق إلى السماء ، ممسكًا بخصره ..

الحقيقة أن الأساطير الإغريقية تحتاج إلى بال رائق ، وضغط دم ممتاز ..

* * *

ازداد الأمر سوءًا حين قرر (زيوس) شخصيًا أن ينزل إلى ساحة المعركة ..

كان (زيوس) بطبعه يميل إلى (فينوس) ابنته المدللة (حبيبة بابا) ، لهذا لم يكن من العسير أن ينحاز إلى الطرواديين ..

ورآه المتحاربون يهبط من السماء محاطًا بالغيوم ، فارتاعت قلوبهم وارتعدت فرائصهم ، خاصة حين رأوه يحمل جعبة الصواعق إياها .. وسرعان ما أمسك بالصاعقة الأولى ، وأحكم تصويبها لتطير وتستقر جوار إحدى العربات الإغريقية ، التى احترقت على الفور بمن فيها ..

تصايح القوم ذعرًا :

ـ « (زيوس) نفسه يحارب مع الطرواديين ! ومن لنا بمواجهة (زيوس) ؟! »



ورآه المتحاربون يهبط من السماء محاطًا بالغيوم ، فارتاعت قلوبهم وارتعدت فرائصهم ..

الصواعق تنهمر كالمطر ، وأرض الميدان صارت شبيهة بمحارق الجثث .. والدخان وصل إلى الأوليمب ذاته ..

وصاح (هكتور) وهو يطير بسيفه ستة رءوس إغريقية مرة واحدة :

- « تماسكوا أيها الطرواديون ! ألاترون أننا كدنا ندحرهم ، وأن (زيوس) شخصيًا معنا ؟ »

الحق أن نزول (زيوس) الميدان كاد يؤدى إلى إنهاء الحرب ، واندحر الإغريق مبتعدين عن أسوار المدينة ، وصاروا الآن يرون سفنهم بوضوح .. وبدأ الحنين يراود كثيرًا منهم إلى ركوب السفن ، فالتجديف بأسرع ما يمكن نحو الوطن ..

إن (أجاممنون) يحث الرجال على القتال ، و(هكتور) يطير رءوسهم كأنما يقتل ذبابًا .. والرجال ممزقون بين إقدام وإحجام ..

ارتجفت (عبير) وهى ترمق المشهد من شرفتها البانورامية ..

وعلى شفتيها ترددت الكلمة فلم تسمعها :

- « (أخيل) .. لا أحد ينقذنا غير (أخيل) ! »

* * *

ولِمَ لا ؟ إنها إغريقية برغم كل شىء ، ومازالت تتوق إلى أن ينتصر الإغريق ويقتلوا (باريس) وربما يقتلوها أيضًا .. لايهم .. إنها تستحق هذا على كل حال ..

ثم إنها كانت تعرف سبب انحياز (زيوس) للطرواديين . إنه يعاقب الإغريق على معاملتهم الفظة لـ (أخيل) بطل الأبطال ، بصرف النظر عن كون (زيوس) ينحاز لابنته (فينوس) مهما فعلت ..

ولم تتردَّد كثيرًا فى اتخاذ قرارها ..

دخلت إلى مخدعها ، ووضعت فوق رأسها غطاءً يبدو عليه القدم ، ثم تسربلت به جيدًا ، حتى صارت لا تختلف فى شىء عن العجائز اللائى يملأن الطرقات ..

غادرت القصر ، فلم يحفل بها أحد ..

كانت تعرف وجهتها جيدًا ..

إنها الشاطئ الشرقى بعيدًا عن سفن الإغريق ..

* * *

ومن بعيد لاحت سفن (أخيل) ، ومن بعيد تردد صوت قيثاره ..

كانت تعرف أنه هنا .. هكذا راحت تنقل خطاها فوق صخور الشاطئ الوعرة ، والأنسام تطير عباءتها فى الهواء .. صفير يكاد يصمّ أذنيها لكنها تتماسك ..

هناك كان البطل العظيم جالسًا ، وقد نزع خوذته ، وأمسك بالقيثار وراح يترنم بأغان عتيقة .. وعلى بعد خطوات منه جلس صديقه وتوءم روحه (باتروكلوس) يتسلى بالرسم على الرمال بعصا ..

دنت منهما أكثر ، ثم وقفت ترمق المشهد المهيب ..

كان الحزن مرسومًا على وجه (أخيل) .. حزن لن يفارق ملامحه أبدًا .. حزن من يشعر بأن قومه تخلوا عنه ..

- « التحية أيها البطل العظيم (أخيل) .. »

نظر لها شارد الذهن ، وقال :

- « هل تبغين شيئًا أيتها العجوز ؟ »

- « جئت كى أنصحك .. »

- « بِمَ ؟ »

- « بأن ترجع إلى قومك وتحارب معهم .. »

نظر لها فى شفقة ، وتبادل نظرة مع صديقه .. ثم ابتسم فى سخرية :

- « وما دخلك أنت بالأمر يا أماه ؟ »

نزعت الغطاء عن وجهها بحركة درامية ، والحق أن نجوم السماء ذاتها اهتزت للمفاجأة .. كأن جمالها قد ألقى إشعاعًا من السحر على الشاطئ كله ..

وارتجف (أخيل) فى رهبة ، وسقط القيثار من يده ..

- « (هيلين) ؟ هل هذه أنت ؟ »

ووقف كالمسحور ومعه وقف (باتروكلوس) .. كان يعرفها وقد رآها مرارًا إلى جوار (منيلاوس) .. لكنه لم يرها قط على هذه المسافة ، والآن هو يفهم بالتأكيد كيف انبهر بها (باريس) .. هذا جمال كالسيف .. جمال يبتر ولا يمكن التفاهم معه ..

قالت (عبير) / (هيلين) فى شمم :

- « نعم .. أنا (هيلين) زوجة (منيلاوس) سابقًا ، وسبب هذه الحرب والمجازر .. يمكنك أن تنهى المشكلة ببساطة لو أردت .. أين سيفك ؟ »

خرّ على ركبته وقال :

- « أنا لا أقتل النساء .. (أخيل) بطل أبطال الإغريق لا يقتل النساء ، ثم إننى ما زلت أراك زوجة مليكى .. »

- « إذن .. عُد لقومك واهزم (طروادة) .. »

- « لا أستطيع .. »

كانت كبرياؤه الجريحة تسيطر عليه بحق ، وبدا أن شيئًا لن يزحزحه ..

★ ★ ★

هنا صاح صاحبه :

- « هناك وفد من الإغريق قادم من بعيد .. إننى أرى على رأسهم (أوديسيوس) .. »

نظر (أخيل) لـ (عبير) نظرة ذات معنى ، وقال :

- « فى الغالب هم آتون لنفس السبب الذى جئت أنت لأجله .. وأرى من الحكمة أن تتوارى حالاً .. »

- « لن يقتلونى .. »

- « أعرف هذا .. لكن نظرة كارهة أو لفظة عابرة قد تؤذى الملكات أكثر مما يؤذيهن نصل السيف .. »

هزّت رأسها فهمًا ، وانسحبت .. لكنها لم ترحل .. توارت وراء صخرة عملاقة تتيح لها أن تسمع وترى ما يدور ، وكل الصخور فى الأساطير الإغريقية تشبه الجدران الشفافة من جانب واحد ..

أخيرًا وصل سفراء النوايا الحسنة ..

كانوا يحملون هدايا ثمينة أرسلها (أجاممنون)

إلى قائده السابق ، وكان (أوديسيوس) فى مقدمة الصفَ ، بينما خلفه (فينكس) وهو من الوجوه المهمة فى معسكر الإغريق .. ونهض (أخيل) يعانقهم فى مودة ، ثم أمر صديقه بأن يقدم لهم الشراب ، وأن يأمر الطهاة بأن يطبخوا لهم غداء شهيًا ..

بدا البشر على وجه (أوديسيوس) ، وقال :

ـ « إن حفاوتك هذه تجعل مهمتنا أسهل ! »

بوجه كالصخر قال (أخيل) :

ـ « لا .. إن الترحاب برجال (أجاممنون) لايعنى خضوعى لـ (أجاممنون) ! أنتم أصدقائى من زمن ، وليس له دخل فى هذا ! »

كان الطعام قد جاء ، فراحوا يأكلون كالحيتان ، ووسط لقيمات الطعام عاد (فينكس) يثير الموضوع :

ـ « (أخيل) .. إن الطرواديين يذبحوننا ، و(زيوس) يحارب معهم .. »

ـ « إن (أجاممنون) يستحق هذا .. إنه كاذب منافق جبان ، وما عدت أطيق أن أحارب مع رجل كهذا .. »

قال (أوديسيوس) :

ـ « لقد أرسل لك هذه الهدايا .. »

ـ « هى لن تزيدنى ثراءً ، ولو شئت لحصلت بسيفى على أضعافها .. قولوا لـ (أجاممنون) يا رفاق أننى لن أحارب الطرواديين إلا إذا آذونى أو آذوا رجالى .. »

ساد صمت ثقيل ، وبدا واضحًا أن الطعام تحول إلى (خرسانة) فى بطون الجميع ، ولولا التهذيب لمدّوا أصابعهم فى الحلوق ليفرغوه ..

بعد هنيهة قال (أوديسيوس) مهمومًا :

ـ « أرى أن علينا أن نرحل يا (أخيل) .. »

ـ « كما تشاءون أيها الأصدقاء .. »

وكأنما بعصا ساحر ، تفرق الإغريق من حول مائدة (أخيل) ..

* * *

٧ ـ صديق يلقى حتفه ..

طلعت شمس الصباح ..

ومعها عادت (أم مرجم) ـ كما يقول الأعراب ـ تواصل نشاطها المحموم ، وفى هذا اليوم بالذات كان (أجاممنون) هو المحارب الأكثر شراسة ، وكانت عيناه تقتلان أسرع من سيفه ، والعرق المتصبب منه يحرق من يلمسه كالنار .. لقد أدرك ألا أمل هناك فى عودة (أخيل) لصفوفهم ، فلم يبق إلا الاعتماد على الذات .. إن انتظار (أخيل) شبيه بانتظار (جودو) الذى لايجىء ، كما سيكتب الخواجة (بيكيت) بعد أعوام وقرون ..

وبرغم استبسال الرجال ؛ لم تكن الأمور على ما يُرام ، فقد تبين بجلاء تام مدى انحياز (زيوس) إلى جانب الطرواديين ..

ومن مكان ما وسط الصفوف انطلق سهم ، ليستقر

فى عنق (ماكون) طبيب الإغريق .. وربما أبرع طبيب لديهم .. كان رجلاً مهذبًا وديعًا لا يجيد الكرّ ولا الفرّ .. لكن السهم لا يجيد المجاملات ..

وهرع (نسطور) المحارب الإغريقى العجوز يجرّ الجثة بعيدًا عن المعركة .. وقال له الطبيب وهو فى النزع الأخير :

ـ « لقد تمزق الشريان السباتى ، فلا تضيّع وقتك ! »

قال الشيخ لاهثًا :

ـ « مع احترامى لعلمك يا دكتور ، أتمنى أن تخرس قليلاً .. »

وواصل جرّ الجثة إلى الشاطئ .. إلى حيث كان (أخيل) جالسًا يعزف على القيثار ويشكو زمانًا صار فيه اللصوص قادة جيوش ..

رأى (أخيل) المشهد الدامى ، فقال بلا اكتراث :

ـ « هل ثمة مشكلة ؟ »

احمرّ وجه الشيخ غيظًا ، وقال من بين أسنانه :

ـ « لامشكلة هناك .. إن الوضع مطمئن للغاية ! شكرًا .. إن الطبيب يرغب فى الاستجمام على الشاطئ قليلاً ! »

تساءل (أخيل) من جديد :

ـ « يستجم ؟ بسهم فى رقبته ؟ ألا ترى هذا غريبًا بعض الشىء ؟ »

هنا انفجر الشيخ :

ـ « ويحك يا (أخيل) ! ضوضاء المعركة يصمّ الآذان ، و (هكتور) يتسلى بقتلنا كما يتسلى غلام بقتل النمل ، وأنت جالس هنا لاتفعل شيئًا سوى ندب حظك ؟ »

قال (أخيل) فى عناد وهو يرمق البحر :

ـ « منحت كل شىء لدى للإغريق ، لكنهم عند أول فرصة استلبونى غنائمى .. واليوم حين صارت المعركة وبالاً عليهم ، تذكروا أن عندهم (أخيل) ، وراحوا يطالبون بعودته .. »

هنا اطلق الطبيب آخر شهقة ، وكف عن الحركة ..

قال (نسطور) وهو يريح الرأس الميت على الرمال :

ـ « هذا واحد آخر لن يبيت فى معسكر الإغريق الليلة .. »

ثم التفت إلى (باتروكلوس) صديق (أخيل) العزيز ، وقال :

ـ « مادام صاحبك لن يحارب ، فلتقترض درعه وسيفه وتنضم لنا .. لعل الطرواديين يحسبونك هو ، وهم يعملون له ألف حساب .. »

نظر (باتروكلوس) إلى (أخيل) ، ولم يدر أى قرار يتخذ ..

* * *

فى هذه اللحظة كان الإغريق قد جلبوا برجًا عملاقًا يريدون تثبيته إلى جدار المدينة .. هنا برز لهم (هكتور) العظيم .. وكان أسلوبه بسيطًا جدًا وناجحًا .. لقد انحنى فحمل صخرة هائلة الحجم ارتفاعها كارتفاع قامته ..

- « هااااه ! »

دوت الصيحة من بين أسنانه فارتج لها الميدان ، ثم هوى بالصخرة على البرج ، فتهاوى هذا كأنه من الورق ، وتساقط الإغريق من فوقه ..

هنا فقط تناول البطل الطروادى سيفه ، وراح يحش به الرءوس فى كل اتجاه .. كل حركة للسيف تساوى رأسًا أورأسين ..

لاشىء يصلح للتصدى لـ (هكتور) إلا دبابة ، وربما نجحت هذه بشىء من الجهد ..

وقد حاول الإغريق أن يلقوا عليه صخرة .. حقًا أصابته وأسقطته أرضًا .. حقًا سال دم كثيرمن فيه .. حقًا توقف عن القتل قليلاً ..

لكن سرعان ما استعاد قوته ، وواصل التدمير والقتل .. وتعالت صرخات الإغريق (والهندى يحصدهم) على رأى شاعرنا (الأعشى) ..

* * *

كان صوت الدماء المتفجرة ـ وليس صوت الصراخ ـ يصل إلى الشاطئ ، حيث جلس (أخيل) يحفر فى الرمال ، جوار (باتروكلوس) .

كان (باتروكلوس) الآن يشبه الإناء الذى غلى حتى أوشك غطاؤه أن ينفجر .. وطارت كرة من النار فوق الرءوس قاصدة سفن الإغريق ، فاشتعلت النيران فى واحدة منها ، وتهاوى شراعها ..

هنا فقط انفجر الإناء ، وانهمرت الدموع من عينى (باتروكلوس) :

- « رحماك يا (أخيل) ! »

وتوقف ليمخطِ على الرمال ، ثم واصل الكلام :

- « السهل هناك تغطى بدماء قتلانا ، و (هكتور) يلهو بجثثهم كما تلهو القطة بفأر ميت ، وأنت جالس هنا تأبى التدخل ! »

نظر له (أخيل) ببرود ولم يعلق .. فقد قالها مرارًا من قبل : لقد آذانى الإغريق حين كانت الحرب فى صالحهم ، واليوم يريدون أن أعود .. فكيف ؟

بعد قرون من هذه اللحظة سيتكرر المشهد حرفيًا مع (عنترة العبسى) .. البطل الأسود الذى طلب يد (عبلة) ابنة عمه ، لكن هذا الأخير أبى .. ولسوف يجلس (عنترة) يتسلى بطقطقة أصابعه بينما الأعداء يفترسون قبيلته (عبس) .. ولسوف يجىء إليه من أهانوه من قبل يتوسلون له أن يعود ويحارب .. وقد فعلها وانتصر كالعادة ..

هذا الموقف عبّر عنه الشاعر العبقرى (أمل دنقل) فى رائعته (البكاء بين يدى زرقاء اليمامة) فى الأبيات التى يصف فيها نفسه باعتباره (عنترة) :

« فلما حانت ساعة الطعانْ

لما تخاذل الرماة والكماة والفرسانْ

دُعيتُ للطعانْ

أنا الذى ما ذقت لحم الضانْ

أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيانْ

أدعى إلى الموت ولم أُدعَ إلى المجالسة »

هذا الموقف إذن خالد فى ضمير الأدب العالمى ..

قال (أخيل) لصاحبه :

ـ « ماذا تريد إذن ؟ »

ـ « أريد أن تعطينى سلاحك وجنودك ، وسأقاتل أنا .. لا أستطيع البقاء هنا بينما المذبحة تقترب من النهاية .. »

صمت (أخيل) ، وعاد يرمق البحر ، الذى اشتعلت فيه ثلاث سفن ..

ثم مدّ يده وناول درعه الفضى ، وسيفه ذا المقبض الذهبى ، وخوذته .. إلى صاحبه .. إنها قطع السلاح التى صنعها (فولكانو) شخصيًا له .. (فولكانو) أبرع حدّاد فى الكون .. ناوله هذه الأشياء وقال له :

ـ .. هيا .. لكن لا تخاطر أكثر من اللازم .. »

هرع (باترتلوكوس) إلى العربة الحربية ، وأمسك برمح فى يده واعتمر الخوذة ، ثم أمر السائق (أوتوميدوس) أن يتحرك نحو الميدان .. وأشار

إلى الجنود كى يتبعوه ، وهَز (أخيل) رأسه موافقًا .. فارتفع الغبار إلى عنان السماء ..

★ ★ ★

- « (أخيل) ! (أخيل) ! »

تصايح الإغريق والطرواديون ، حين لمحوا الخوذة والسيف اللذين لا تخطئهما العين ..

وبدا للجميع أن (أخيل) قد انتصر على حقده وعاد ..

وانطلقت سهام (باتروكلوس) تحصد الطرواديين .. لِمَ لا ؟ إن (باتروكلوس) محارب عظيم بدوره ، لكن التصاقه بـ (أخيل) جعل الناس ينسون قوته ..

والواقع أنه فى هذا القتال ابتدع طريقةً جديدة ، هى التصادم .. راحت عربته الحربية تندفع لتصدم ثلاث أو أربع عربات فتنقلب ..

ومن موقعها فوق الأسوار التى تتيح لها رؤية بانورامية مذهلة ، ارتجفت (عبير) وهى ترى المشهد ، وتذكرت عملاقًا آخر حقيقيًا هذه المرة ، هو (رمسيس) فى معركة (قادش) ..



ثم مدّ يده وناول درعه الفضى ، وسيفه ذا المقبض الذهبى ، وخوذته .. إلى صاحبه ..

هتفت مفتونة :

ـ « هذا (أخيل) .. لقد عاد ! »

قال العجوز (هوميروس) وهو يرفع وجهه للسماء :

ـ « بل هو صديقه (باتروكلوس) ! »

ـ « ياسلام ! لا تزعم أنك ترى وجهه ! »

ـ « بل أنا (أعلم) وجهه .. وهذا فارق لايعرفه إلا شاعر ضرير.. »

ثم راح ينشد أبياتًا من الشعر يصف بها ما يحدث :

ـ « بحصانى (أخيل) ودرعه وسيفه

يدحر (باتروكلوس) جحافل الطرواديين ..

و (زيوس) راح يضرب كفًا بكف

عاجزًا عن عمل ماينبغى عمله ..

ألا فأقدم يا (باتروكلوس) !

ها هو ذا (سربيدون) يسدد سهمًا

لكنه يصيب أحد جوادى (باتروكلوس) ..

يسقط الجواد أرضًا ويجره رفيقه

لكن السائق الأسطورى (أوتوميدون) يقطع رباط الجواد ..

وتعود العربة إلى سباقها المجنون ..

ألا فأقدم يا (باتروكلوس) ! »

ابتسمت (عبير) .. لابأس .. صحيح أن الشاعر الضرير لايرى شيئا على الإطلاق من هذا الذى يصفه ، لكنه ـ كما يقول ـ يعلم .. وتعليقه يذكرها بالكابتن (محمد لطيف) حين يعلق على مبارة نارية بين الأهلى والزمالك ، مع فارق واحد هو أن الفريقين لن يذبحا بعضهما ..

ورأت (عبير) شخصًا مألوفًا يضىء كالشمس ، يهبط من السماء .. بدا لها هذا مألوفًا لأنها قابلت (أبوللو) أكثر من مرة ..

كان غاضبًا لأن كفة الإغريق راجحة ، وقرر أن يدعم ظهر الطرواديين قليلاً ، وهذا شىء معتاد فى هذه الحرب التى تشهد تدخلات سادة الأوليمب فى كل ثانية ..

مَد (أبوللو) يده وانتزع خوذة (أخيل) من فوق رأس (باتروكلوس) ، وألقى بها وسط التراب .. ثم تناول الدرع فأطاره فى الهواء ..

كانت هذه هى بالذات اللحظة التى وصل فيها (هكتور) ، بعد ما سمع أن (أخيل) عاد إلى الميدان ، وقد أثار هذا لديه مزيجًا من الرهبة والحماس ، فالحقيقة أنه لم يستطع قط تذوق الحرب من دون خصمه الوحيد المكافئ له ..

رأى (باتروكلوس) عارى الرأس فدهش ، ثم ضحك فى وحشية :

- «نياهاهاها ه ! هذا هو ذا (أخيل) ؟ إنه مجرد طفل !»

ثار (باتروكلوس) غضبًا وانقض على (هكتور) ..

كان هذا من آخر الأخطاء التى يرتكبها المرء فى حياته ، وسرعان ما غيب (هكتور) رمحه فى جنب (باتروكلوس) إلى حَد أنه نفذ من الجانب الآخر .. ورفع الطروادى العملاق الرمح بالجسد المثبت فيه ، وقام بتدويره عَدة مرات فى الهواء .. ثم قذف به بعيدًا ..

تقول الأسطورة إن (باتروكلوس) قال شيئًا على غرار :

- « لقد قتلتنى لكنك لم تهزمنى ، إنما هزمنى (أبوللو) .. »

غير أننى أرى أن هذا تخريف .. لقد مات (باتروكلوس) دون أن يلفظ بحرف ..

★ ★ ★

٨ ـ (أخيل) يعود ..

انتهت (عبير) من التهام أظفارها فأصابعها وهى ترمق هذه المأساة ..

وكان (هكتور) ـ كما قلنا ـ غير مولع بالتمثيل بالجثث ، لكنه كان مضطرًا لاحترام التقاليد الإغريقية .. اتجه إلى ساقى (باتروكلوس) كى يربطه إلى عربته الحربية ، ويجرّه قليلاً ، لكن الإغريق وقفوا يتصايحون منذرين بالويل ، ومنعوه من التمادى والوصول إلى الجثة ..

فى الآن ذاته جرى عدّاء إلى الشاطئ ، حيث جلس (أخيل) وحده يعبث فى الرمال .. فلما دنا منه صاح متلاحق الأنفاس :

ـ « باه ه ه .. كلوه ه ه .. ماه .. ماه ! »

نهض (أخيل) واعتصر صدر الرجل ليبطئ من لهاثه ، وسأله فى غيظ :

ـ « ماذا تقول ؟ »

أخرج الرجل زفيرًا هائلاً كالحيتان ، وصاح :

ـ « (باتروكلوس) .. مااااات ! »

ـ « لاااااه ! »

صاح (أخيل) وهو يرفع ذراعيه إلى السماء ، وخرّ على ركبتيه منهارًا ، لكن العدّاء كان عمليًا أكثر من اللازم .. صاح بـ (أخيل) :

ـ « إنـ .. إنهم يمثلون بـ .. بجثته الآن لو لم تـ .. تسرع .. »

* * *

لم يكن معه سلاح ، ولم يكن وقت للبحث عن سلاح ..

هرع يركض نحو الميدان ، ورأى الزحام والجيشين يصطرعان على الجثة الممزقة ، فعوى .. بل زأر كالأسود ..

وكما يهوى جلمود صخر (امرؤ القيس) من عل ، هوى على الطرواديين يحمل هذا ، ويلقيه على هذين ، ويركل ذاك فيطير فوق هؤلاء ..

وفى هذه اللحظة أدرك الطرواديون أن هذا هو (أخيل) حقًا ، ودبّ فيهم ذات الهلع ، الذى كان يجعل الجنود الإنجليز يلقون بأسلحتهم ويفرُّون ، بمجرّد سماع اسم (روميل) الرهيب .. هذا طبعًا قبل أن يعلمهم (مونتجمرى) ألا يخافوا الاسم ، ويفوز لهم بمعركة (العلمين) .

انفض الجميع فلم يبق إلا (أخيل) وجثة صديقه ..

وعلى ركبتيه جثا (أخيل) يبكى ..

يبكى صديق عمره ..

يبكى الذى ذهب ليقاتل بدلاً منه ..

ومن (الأوليمب) هبط مبعوث يحمل لـ (أخيل) خوذة جديدة ، وسيفًا جديدًا ، ودرعًا جديدة ..

كانت الدموع تبلل عينيه ، لكنه تماسك ، ووضع الخوذة وتمنطق بالسيف ..

هكذا الحرب .. مأساة دائمة أشنع ما فيها أنها لاتترك لك فرصة لتذوق هذه المأساة ..

ورأى وسط الغبار من يدنو منه على مهل ، وربما تردّد .. وانجلى الغبار نوعًا ليرى أن هذا (أجاممنون)، الذى امتلأ وجهه بالندوب والإرهاق ..

هذه المرة لم يكن لدى أحد الرجلين مزاج رائق للشجار ..

وتعانق البطلان ..

* * *

فرغت (عبير) من مشاهدة كل شىء ، فدخلت إلى خدرها ..

كانت أسوار (طروادة) هذه ساحرة حقًا ، أشبه بعروض (الكولوزيوم) التى تتيح لك رؤية كل شىء بدقة غير عادية ..

وكان (هوميروس) جالسًا ينعى (باتروكلوس) على قيثارته ، فقالت له :

- « أعتقد أن الحرب في عداد المنتهية الآن .. لقد عاد (أخيل) .. إن (باتروكلوس) مات ، ولكن موته حقق ما لم تحققه حياته .. »

كفّ (هوميروس) عن الإنشاد ، وقال :

- « من الخطأ اعتبار (طروادة) قد هزمت إذ عاد (أخيل) .. ومن الخطأ اعتبار النجاح أو الفشل حكرًا على وجود أو غياب رجل واحد .. »

- « لكن الجميع يعتقد هذا .. »

- « لاتنس أنه ظلّ مع الإغريق تسع سنوات ، لكن أسوار (طروادة) ظلت منيعة لم تقتحم .. »

- « هل تعنى أن الطرواديين سيفوزون ؟ »

- « لا أعنى شيئًا .. أريد أن تنظرى لترى .. »

وفى هذه اللحظة مرّ بهما شبح يترنح ، وهو ينشد بعض عبارات التقديس لـ (فينوس) .. لم يكن هذا إلا (باريس) ، ولم يبد أنه رآهما أصلاً ..

صاحت فى (هوميروس) :

- « وماذا يفعل هذا الحيوان هنا ؟ »

أشار إلى عينيه اللتين لا سواد فيهما ، وقال :

- « تتكلمين كأننى أرى ما تشيرين إليه .. »

قالت فى غيظ :

- « كلما حاولت أن أصف لك ما أراه ، قلت لى إنك لاترى لكنك (تعلم) .. وعلى كل حال هذا الحيوان هو (باريس) .. »

قال وقد فهم :

- « (باريس) لم يمت .. لقد أخفته (فينوس) وسط الضباب ، وها هو ذا قد عاد إلى القصر .. »

قالت فى ضيق ، وهى تتكئ على الأريكة :

- « إنه لايطاق .. »

* * *

وكان اليوم التالى - كما هو متوقع - عسير التصديق .. لقد كفّ (زيوس) عن محاربة الإغريق ، ويبدو أن (هيرا) و(منيرفا) لعبتا دون تدخله ..

ها هما (أخيل) و(أجاممنون) يتقدمان صفوف الإغريق ، وبالطبع كان مشهدهما أسطوريًا .. أشياء كهذه لا توصف لكنها تُرى أو يُشعر بها ..

كان سيف (أخيل) يهوى على الرءوس فيطيرها ، بينما سهام الطرواديين تتهشم على جسده المنيـع .. وبينما (أجاممنون) يغرس رمحه فى عجلات العربات فتنقلب ، وفى القلوب فتنفجر ..

حقًا كان (هكتور) يؤدى عمله جيدًا ، لكن الإغريق كانوا يملكون أسماء لامعة كثيرة ليس (أوديسيوس) أعظمها شأنًا ..

وكان مشهدًا مهيبًا أن ترى (أخيل) قد أعطى ظهره لـ (أجاممنون) وراح البطلان يطلقان السهام بلا انقطاع .. فى كل اتجاه ..

وفى النهاية صمت الجميع ..

لقد وقف (هكتور) أمام (أخيل) ..

* * *

من الغريب أن البطلين لم يتواجها قط طيلة الحرب ، والآن صمت الجميع وهم يرون آلتى الحرب تقتربان من بعضهما ، والعيون مثبتة على العيون ..

لايذكر التاريخ نصّ ما دار بين البطلين ، لكن (عبير) / (هيلين) استطاعت أن تسمع العبارة الأولى ، وكانت من (أخيل) :

ـ « هذا أنت إذن (هكتور) العظيم ، وقاتل أعزّ أصدقائى .. »

ـ «وأنت (أخيل) العظيم .. الأثير لدى (الأوليمب) ..»

رفع (أخيل) سيفه وهو يلهث انفعالاً ، وقال من منخريه :

ـ « لا أحد يقتل صاحبى ، ويرى شمس يوم جديد .. »

ـ « لكل قاعدة شواذ .. »

ورفع (هكتور) سيفه بدوره وصاح ..

واندفع البطلان كصخرتين ، لاهثين صارخين عاتيين .

حتى (عبير) لم تستطع أن تبقى عينيها مفتوحتين .. أغمضتهما بضع ثوان ، ثم فتحتهما لترى ..

ترى (هكتور) ممددًا فوق الرمال والدم يتفجر من عنقه ، بينما (أخيل) قد سقط أرضًا لأنه لم يستطع التوقف عن الاندفاع ..

هلل الإغريق مرحًا ، وطارت الرماح والسيوف فى الهواء .. ولم تعد تسمع سوى المقطع «إيل .. إيل ..» الأخير فى اسم (أخيل) ..

يمكن القول إن الحرب انتهت .. مادام (هكتور) المخيف قد مات ..

وقال (أخيل) فى هدوء وإن أسمع الجميع :

- «اربطوا ساقيه إلى عربتى !»

من جديد الجرّ ! كادت (عبير) تجنّ .. إن الأساطير الإغريقية تبدو تكرارًا لانهاية له للمشهد الأخير من فيلم (الأرض) ، وتوقعت أن يظهر (محمد أبو سويلم) فى أية لحظة ..

وسرعان ما راح الجثمان يركض فوق الرمال .. فقط لم يفعل ذلك على ساقيه .. كان المشهد رهيبًا ، وحتى الإغريق لم يستطيعوا الهتاف أو إظهار الفرحة ..

كان (أخيل) فى حالة من الجنون الوقتى ، وظل يدور بسرعة جنونية حول الميدان ، وبدا أنه لن يتوقف أبدًا ..

وفى النهاية ، وبعد دهر كامل ، استدار ليهوى على الحبل بسيفه ، فتدحرج الجسد الضخم قليلاً ثم همد تمامًا ..

* * *

ثلاثة أيام كاملة !

ثلاثة أيام ظلّ الإغريق لايفعلون فيها شيئًا سوى الاحتفال والعربدة .. وظلت الجثة فى موضعها تتسلى عليها الطيور الجارحة ..

كاد الأب العجوز (بريام) يجن ، وهو يرى فى كل دقيقة من اليوم جثة ابنه ملقاة وسط الميدان ..

وفى النهاية خرج من الأسوار ، ومعه (عبير) التى لم تطق أن تترك هذا الشيخ طيب القلب يمرَّ بمأزق كهذا ..

مشيا معًا حتى وصلا إلى معسكر الإغريق ..

كان هؤلاء محتشدين حول النار يغنون ويرقصون ، وفى صدر المكان جلس (أخيل) .. البطل العظيم .. جلس شاردًا يرمق النار المتراقصة ، وفى عينيه ألف ذكرى وألف ألم .. ذكريات مبتلة كالماء .. مالحة كالدموع ..

رفع عينيه فرأى المشهد ، وسمع صوت الصمت .. إن (بريام) ملك الطرواديين العجوز قد جاء إليه .. جاءه دون حراس ، ولا رفاق إلا الفتاة التى أشعلت هذه الحرب كلها ..

قال (أخيل) فى محاولة للتماسك :

- « (هيلين) .. ليس مجيئك هنا آمنًا .. إن الإغريق لايحبونك ، لكنهم يحبون زوجك .. »

قالت فى ثبات نجحت فيه :

- « الطرواديون كذلك لايحبوننى ، لكنهم يخافون سلطان زوجى الجديد .. وعلى كل حال نحن هنا تحت حمايتكم وفى ضيافتكم .. أنا إغريقية وأعرف أن الإغريق لا يقتلون النساء والشيوخ .. »

- « أحسنت القول ، ولكن لماذا جئت ؟ »

هنا ارتمى الملك العجوز على ركبتيه ، وهتف :

- « جثة ابنى .. أريد (هكتور) ! »

هنا تصايح الإغريق محنقين رافضين ، فرفع (أخيل) يده المزدانة بأساور الفولاذ وصاح :

- « أعطوه الجثة ليدفنها كما يليق ببطل ! »

أذعن القوم ، وتعاون أربعة منهم على حمل الجثة وتغطيتها ، ثم مشوا كأنهم فى جنازة نحو أسوار (طروادة) ..

نظر الأب إلى (أخيل) ، وفكر فى أن يشكره .. ثم عدل عن ذلك .. أليس هو قاتل ابنه بعد كل شىء ؟

وسرعان ما لحق بالجمع المتجه إلى (طروادة) ..



هنا ارتمى الملك العجوز على ركبتيه ، وهتف :
- « جثة ابنى .. أريد (هكتور) ! » ..

وبدورها نظرت (عبير) إلى الوراء .. وللحظة خطر لها أن تعود لهم .. لكنها ارتجفت من الفكرة .. كما قال (باريس) لن تحقن الدماء ..

إن الأيام ستدور دورتها ، ولسوف يحدث ما لابد أن يحدث ..

* * *

وفى احتفال مهيب رهيب ، وقف الطرواديون يحرقون جثمان (هكتور) الذى حماهم ووحدهم كل هذه السنين .. (عند هذه النقطة تنتهى ملحمة الإلياذة) ..

ومع الدخان المتصاعد كانوا يشعرون أن النار تحرق مدينتهم وغدهم ، وأن نزاع السنوات العشر يدنو من نهايته ..

دنا (هوميروس) من اللهب ، وصاح ملوحًا بقيثاره :

- « الحرب لم تنته يا أهل (طروادة) .. ومازال (باريس) و(بيرام) حيين ! »

انطلقت عبارات السباب تنهال على رأس العجوز البائس ..

وقال أحد المتحمسين :

- «لو كان الموت يختار لاختار (باريس) الرقيق، بدلاً من هذا البطل ! »

وقال آخر :

- «بل الموت يختار ببراعة .. يختار الأفضل والأنبل والأشجع ! »

وإلى حد ما كانت (عبير) تفهم ما يشعر به الطرواديون والإغريق .. كانت هناك قوتان كاسحتان فى العالم هما (هكتور) و(أخيل) .. كأنهما النار والماء .. الأرض والسماء .. فجأة تلاشت إحدى القوتين ، وحدث اختلال فى النفوس ..

لكن القوة الثانية لم تكن لتعيش طويلاً ..

وإليكم ما حدث ..

* * *

٩ - عملاق وقزم ..

وعند المساء دخل (باريس) حجرتها .. ووقف ساكنًا ينظر إلى الجدار ..

من الواضح أنه قد وضع قدمه على أول الطريق الملكى إلى الجنون ..

بعد صمت طال سألها :

- « (هيلين) .. هل تحبيننى ؟ »

- « لا .. »

قالتها وتثاءبت واستلقت على الأريكة ، متظاهرة بأنها بحاجة إلى النوم .. عاد يسألها فى دهشة كأنما يعرف هذا لأول مرة :

- « حقًا لا تُحبيننى ؟ »

- « هو كما سمعت .. »

- « والسبب ؟ »

لم تردّ لأنها تمقت الأسئلة السخيفة والأجوبة التافهة .. فقال لها مُلحًا :

- « كنت تهيمين بى حبًا ، وفررت معى .. »

- « كان هذا سحر (فينوس) ، والآن لم يعد له أثر .. واضح أن (فينوس) لم تعد رائقة المزاج للعناية بك .. »

راح يجوب الغرفة متوترًا .. كانت تعرف أن هذه بالذات هى اللحظة التى يجنّ الرجال فيها ويقتلون زوجاتهم ، ولم تستبعد هذا .. لكنه كان واهنًا نحيلاً يمكنها أن تهزمه بسهولة لو حاول خنقها .. ثم إنها لم تعد تكترث ..

سألها فى عصبية وهو يرتجف :

- « ليس الموضوع أن سحر (فينوس) انتهى ، ولكنك تكرهين ضعفى وسط كل هؤلاء الأبطال .. لكن أكثرهم يرقد فى قبره الآن .. »

قالت بلا مبالاة :

- « ليس الموضوع ضعفك .. بل هو كونك السبب المباشر فى كل هذه المذابح ، وكل هؤلاء الذين (لن يعودوا لبيوتهم اليوم) .. »

- « يا سلام ! ألم تكونى أنت أيضًا السبب ؟ »

- « ومن قال إننى أحمل لنفسى أدنى تقدير ؟! »

عاد يجوب الغرفة كنمر حبيس ، وقال :

- « والعمل ؟ »

- « لاشىء .. ننتظر حتى يدخل الإغريق (طروادة) ، ويقتلوك ويعيدونى لزوجى الأول الذى قد يقتلنى بدوره .. »

- « لا ! »

كذا صاح ، وضرب الحائط بقبضته ، ومن الغريب أنه لم يصرخ أو يئن .. راح يعض أنامله وقد شرد تفكيره .. ثم هتف :

- « لن ينالونى حيًا .. غدًا سأحارب ، ولسوف تصيبهم الدهشة ! »

قالت فى ملل ، وهى تدير وجهها للحائط :

ـ « حقًا ستصيبهم الدهشة ! »

ـ « وأنت ستهيمين بى حبًا .. »

ـ « ربما أهيم على وجهى ! »

وأغمضت عينيها وحاولت أن تنام ..

* * *

فى الصباح كان الإغريق قد قرروا إنهاء احتفالهم ، كأنما حرق جثة (هكتور) معناه انتهاء المهلة ..

هذه المرة بدأ الزحف مع الأبراج العملاقة نحو (طروادة) ، وكانوا يعرفون أن (طروادة) المدينة العنيدة سوف تتحول إلى رماد عند قدوم الليل .. لم يتوقعوا هذا بل كانوا يعرفونه يقينًا .. إن (زيوس) قد تخلى عن (طروادة) ، و(فينوس) ملت الدفاع عن (باريس) ، و(هكتور) ليس هنا كى يقلب الأبراج ..

ومن (طروادة) خرج المحاربون متجهمى الوجوه ،

ينتظرون البلاء الأعظم .. لن يمر هذا اليوم إلا وهم جثث ، ونساؤهم سبايا ، وأطفالهم عبيد ، وديارهم خرائب .. ماذا بوسعهم أن يفعلوا سوى المواجهة ؟

وظهر (أخيل) فى مقدمة الصفوف ..

كان متجهم الوجه بدوره ، كأنما هو غير راغب فى الهول القادم ..

وتلك هى السمة العامة التى لاحظها النقاد فى (الإلياذة) : كل الأبطال مقهورون وضحايا .. كلهم متورط فى حرب لا يريدها لكنه يخوضها بشرف ..

كلهم نبيل .. فلا يوجد أشرار حقيقيون ، وحتى (باريس) البغيض مجرد وغد ضعيف أمام شهواته .. وهذا هو ما يجعل (الإلياذة) مأساة حقيقية تملأ قارئيها حزنًا على مصير أبطالها ..

كالعادة وقف (أخيل) صائحًا فى رجال (طروادة) :

ـ « إننى أتحداكم أيها الطرواديون .. فمن يريد منازلة (أخيل) ؟ »

تبادل الطرواديون النظرات ..

هل هذا الرجل يمزح ؟ تحدى (أخيل) ؟ يا سلام ؟!

من جديد عاد (أخيل) يكرر تحديه :

- « هل خلت (طروادة) من رجل حارّ الدماء ، يقبل تحدّى (أخيل) ؟ »

كانت الإهانة واضحة لاذعة ، لكن لسان حال القوم قال إن رجلاً جبانًا حيًا أفضل من رجل حارّ الدماء ميت ..

هنا دوى صوت رفيع :

- « أنا أتحداك ! »

ونظر الجميع إلى هذا الأحمق ، فوجدوا (باريس) ! (باريس) الواهن الذى يكاد يعجز عن حمل سيفه ، والذى جاء من مكان ما ..

نظر له (أخيل) ، وكتم ابتسامته ، وقال :

- « (باريس) يا بنى .. ابتعد عنّى .. فأنا طلبت رجلاً ! »

- « وأنا لبيت نداءك ! »

نظر (أخيل) من حوله فى ارتباك ، وقال :

- « وأنا أرفض مقاتلتك .. لسوف يتبعثر شعرك الجميل ! »

(عبير) كانت ترمق المشهد من سور المدينة المحاصرة ، وجاورها (هوميروس) الذى لا يكف عن نظم الأشعار وإنشادها ..

قالت لـ (هوميروس) مندهشة :

- « لقد جن (باريس) .. أعتقد أنه وجد طريقته المثلى للانتحار ، وما خطر لى أن هذا ما ينتويه أمس ! »

قال الشاعر الضرير :

- « ربما .. لكنه ليس مجنونًا على كل حال .. »

نظرت له (عبير) وقد بدأت تفهم :

- « لحظة .. عرفت من سيفوز فى هذا القتال .. إنه (باريس) طبعًا ! أليس كذلك ؟ »

- « ربما .. ولكن لماذا تقولين هذا ؟ »

- « عقدة العملاق والقزم الشهيرة .. نموذج (داوود وجالوت) .. فى هذا النوع من الصراعات ينتصر القزم غالبًا ! »

ضحك فى خبث وقال :

- « حسن .. لايمكن أن يثير المرء انبهارك أبدًا .. »

- « لم أعد ساذجة كما كنت .. ولكن كيف سيحدث هذا ؟ »

- « راقبى القتال لتفهمى .. »

★ ★ ★

وفى الميدان كانت المواجهة مستمرة بين (باريس) و(أخيل) .. كان (أخيل) غير راغب فى أن يبدو متحمسًا ، لذا أدخل سيفه فى جرابه ، وراح يكتفى بتحاشى طعنات (باريس) المحمومة المجنونة ، وعلى فمه ابتسامة واثقة أثارت غيظ الفتى ..

أخرج (باريس) قوسه والسهام ، وبدأ يصوّب

على صدر (أخيل) ، لكن السهام طاشت أوتهشمت حين لامست جسده المنيع ..

استدار (أخيل) إلى الإغريق وقال ويده فى خصره :

- « كما ترون يا رفاقِ .. سأترك هذا الصبى يموت إجهادًا أو يموت مللاً .. ولن ..... »

وهنا أطلق (باريس) سهمه على كعب (أخيل) البارز من مؤخرة صندله .. وكان السهم مسمومًا .. عرف الجميع أنه مسموم حين استدار (أخيل) إلى الفتى والذهول على وجهه .. وهتف :

- « أنت ؟ قالت أمى إن حياتى ستكون قصيرة ، لكنى لم أتوقع أن تكون أنت .. أنت ! »

ثم سقط على ركبتيه ..

وبعد ثانية سقط على وجهه فى الغبار ..

وهمدت حركته ..

لقد أطلق (باريس) سهمه على كعب (أخيل) ..

الجزء الوحيد غير المنيع فى جسد البطل الذى غمرته أمه فى نهر (ستيكس) .. وهكذا دخل تعبير (كعب أخيل) كل اللغات الغربية ، تعبيرًا عن نقطة ضعف إنسان قوى ، أو نقطة ضعف فى نظام دفاعى صارم ..

★ ★ ★

ساد صمت رهيب ..

ساد طويلاً جدًا جدًا ..

ثم تقدم الإغريق واجمين ، وحملوا جثمان بطلهم عائدين إلى معسكرهم .. لقد انتهت معارك اليوم وربما انتهت الحرب كذلك ..

وحده وقف (باريس) فى الميدان والقوس فى يده .. كان يرتجف كورقة ، لكنه كان راضيًا عن نفسه ..

لم يدر أحد كيف حمله الطرواديون على الأعناق ، وعادوا به إلى المدينة .. إنه فتى عابث ماجن .. لكنه هو الذى قتل (أخيل) ..

(أخيل) الذى قتل (هكتور) .. وما حسبوا (هكتور) يموت كالآخرين ..

كانوا مرهقين عاجزين عن الصياح ..

لكنهم كانوا يتبادلون النظرات .. نظرات تهتف حتى يبحّ صوتها ..

وداخل القصر وقفت (عبير) جوار (هوميروس) ترمق البطل العائد .. لم يتحرك فى قلبها حبٌ .. وكانت تتمنى أن ينتصر (أخيل) ..

لكنها كذلك لم تستطع ألا ترمقه بإعجاب واندهاش ..

وقف (باريس) يتبادل معها النظرات ، ثم همس :

- « هل برهنت على أننى رجل ؟ »

هزّت رأسها ولم تتكلم ..

- « وهل قتلت (أخيل) الذى لايقهر ؟ »

هزّت رأسها من جديد ..

- « وهل انتهت الحرب بفوزنا ؟ »

هذه المرة لم تهزّ رأسها .. فمن قال إن الحرب انتهت ؟

لكن (هوميروس) قال نفس الشيء بصراحة ، فوجه له الفتى ركلة أطارته مترين إلى الوراء ، ودخل حجرته لينام ..

* * *

١٠ ـ الحصان ..

مرت أيام هادئة تراجع فيها الإغريق إلى معسكرهم ، ولم تبد بارقة توحى بعزمهم على القتال ، والحقيقة أن الجواسيس الذين قصدوا الشاطئ وجدوا الاستعدادات للرحيل ..

هلل أهل المدينة المحاصرة ، وكانوا يحتفلون ، لكنهم لم يجسروا على هذا كى لا يستفزوا (هيرا) و(منيرفا) و(زيوس) الذى يبدو أنه بدأ يميل إلى الإغريق ثانية .

أما عن (باريس) فقد مات ..

نعم .. مات بسهم اخترق قلبه ، أطلقه رجل طروادى أبرص ، يبدو أنه قد أخذ مالاً من الإغريق مقابل الانتقام لـ (أخيل) ..

فى الحقيقة لم يقتل الطرواديون القاتل ، إلا على سبيل المجاملة لملكهم (بريام) ، ولولا هذا لتركوه ينصرف أو كرّموه ..

* * *

لم تكن (عبير) / (هيلين) شريرة إلى هذا الحدّ ..

لقد بكت قليلاً على هذا الذى أحبته يومًا ما .. صحيح أنها لم تر منه خيرًا ، لكن الحقد على الموتى من شيمة اللئام ..

ودخل (هوميروس) ليسمعها تنهنه فى الظلام .. طبعًا لم يدرك أنها فى الظلام .. قال لها وهو يدق الأرض بعصاه :

ـ « مات (أخيل) بيد (باريس) ، ومات (باريس) بيد رجل أبرص .. »

سألته وهى تمسح دموعها :

ـ « هل انتهت الحرب إذن ؟ »

لم يردّ على سؤالها ، وواصل الإنشاد :

ـ « لقد تخلت (فينوس) عن طفلها الأثير ، وشعرت بالملل من الدفاع عنه تسعة أعوام كاملة .. (باريس) قد دفع ثمن اختياره غاليًا ، ولربما لو اختار (هيرا) أو (منيرفا) لكان أفضل .. وأنت .... »

وصمت طويلاً ، فقالت :

ـ « أنا ؟ وماذا عنى أنا ؟ لم يعد لى أحد فى هذه المدينة .. »

ـ « وما كان لك أحد منذ البداية ، ومنذ كفت جمرةَ حب (باريس) عن التوهج .. ولكن لا أحد لك فى (إسبرطة) كذلك .. ترى هل مازال (منيلاوس) يحبك ؟ ، وهل ابنتك (هرميون) تعرف أن لها أمًّا ؟ »

صاحت فى غيظ :

ـ « هل أنت هنا لتعزّينى أم تشجعنى على الانتحار ؟ »

ـ « لا هذا ولا ذاك .. أنا مجرد شاعر لا يملك إلا الانفعالات .. »

ـ « إذن ردّ على سؤالى .. هل انتهت الحرب ؟ »

قال بغموضة المعتاد :

ـ « لننتظر ولنر .. »

* * *

فى الصباح التالى راح العداءون يركضون نحو المدينة ، صائحين :

ـ « لقد رحل الإغريق ! »

رحل الإغريق ؟ مستحيل !

وخرج القوم من بيوتهم ينظرون من فوق الأسوار ، ليروا الألف والمائتى سفينة إغريقية تبتعد عن الشاطئ من حيث جاءت ..

وللمرة الأولى منذ عشرة أعوام يرى القوم البحر ، وكانوا قد نسوا كيف يبدو ، ولا كيف يبدو الأفق ..

رحل الإغريق تاركين آثارهم وراءهم .. خيام محترقة .. رماح غرست فى الرمال ، ودروع متناثرة .. وسيوف ..

هذه إذن حرب لم يجن منها أحد شيئًا .. مات عشرات بل مئات الأبطال دون جدوى .. لم تفتح (طروادة) ولم تعد (هيلين) لقومها ..

لكن الناس راحوا يرقصون فرحًا بانتهاء الحرب .. الحرب التى تمنوا ألا ترجع أبدًا بعد اليوم ..

وصاح صائح : إن الإغريق قد تركوا هدية ..

هدية ؟ غريب هذا ..

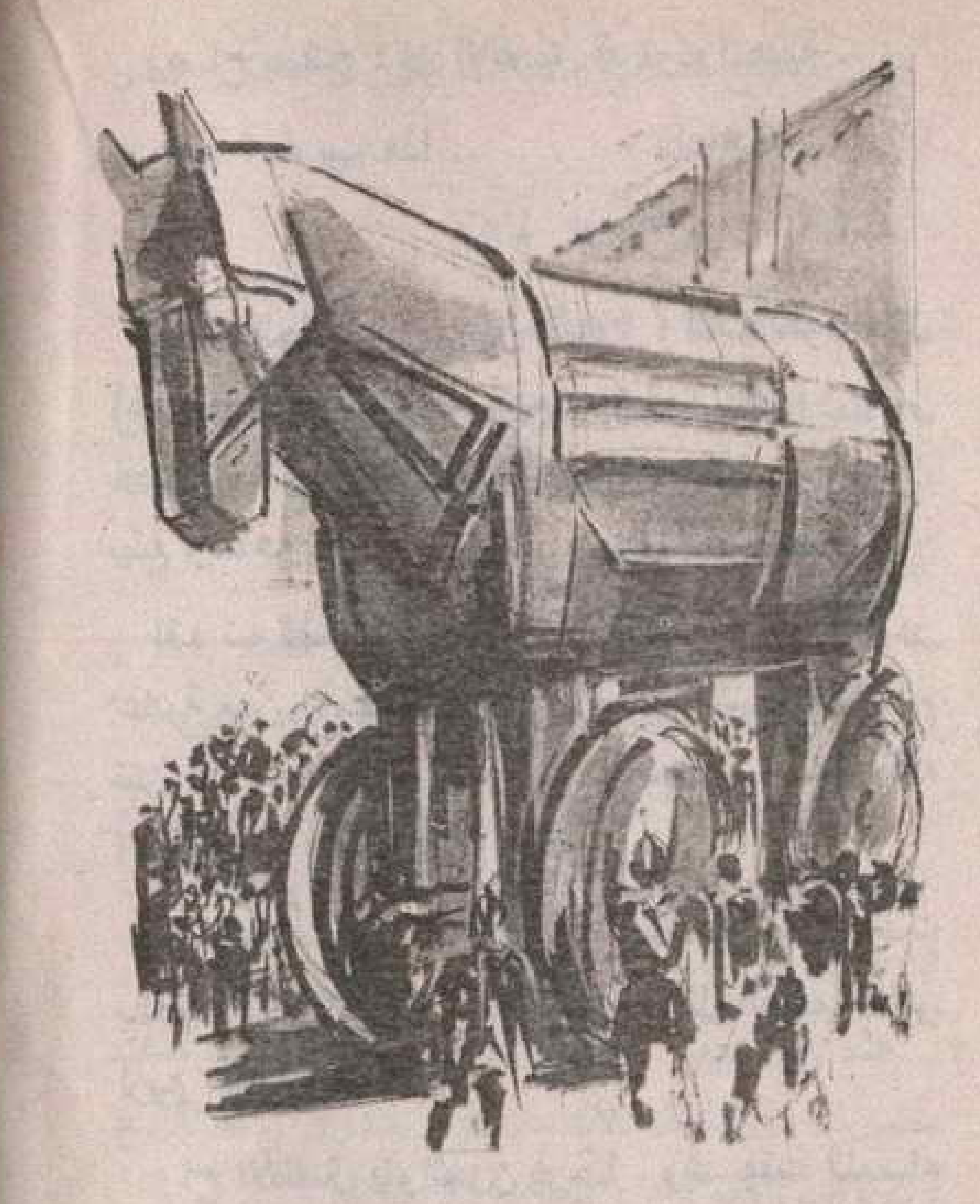
* * *

وحول الجانب الغربى من الأسوار ؛ التف القوم حول أغرب ما رأوه فى حياتهم .. كانوا ينظرون إلى حصان خشبى عملاق يقف على عجلات .. حصان يبلغ ارتفاعه نحو عشرين مترًا ، وطوله نحو خمسين ..

لقد تم تصميمه ببراعة ، وباستخدام كمية غير عادية من الأخشاب .. إذن السفن التى رحلت لم تكن ألفًا ومائتين ، بل ربما كانت ألفًا .. كل هذه الأخشاب لا مصدر لها إلا السفن ..

تم تثبيت الأجزاء بأطنان من المسامير ، ودعمت بالحبال .. وقد ارتكز هذا الكائن الهائل المهيب على أربع عجلات عملاقة ..

راح الأطفال يتواثبون فرحًا ، وشهقت النساء وهن يرمقن ارتفاع الحصان المهيب ، أما الرجال فكانوا عباقرة كعادتهم وقالوا :



كانوا ينظرون إلى حصان خشبى عملاق يقف على عجلات .. حصان يبلغ ارتفاعه نحو عشرين مترا ، وطوله نحو خمسين ..

ـ « هـذا عربون الصلح ! إنه التعبير الأخير عن اعتذارهم لحرب لا لزوم لها .. »

ـ « تعالوا نجره إلى المدينة ! »

صاحت امرأة وسط الجمع :

ـ « صبرًا ! ولماذا يجب أن يكون فى المدينة ؟ »

ـ « لأنه سيقف فى أكبر ميادينا ، رمزًا لانتصارنا .. ما كنا لنبنى تمثالاً بهذا الحجم وهذا الإتقان .. »

* * *

هنا برز من وسط القوم كهل ملتح ، انحنى ظهره وبدا عليه الوهن ، لكن عينيه كانتا تشعان حكمة وذكاءً .

قال (هوميروس) لـ (عبير) وهما واقفان وسط الزحام ، لا يشعر بهما أحد :

ـ « هذا (لاوكوون) كاهن (بوسيدون) .. »

سألته فى كياسة :

ـ « ألا ترى أن حصافتك وبصيرتك تفوقان المتوقع ؟ إن الرجل لم يتكلم بعد حتى تتعرفه ! »

ـ « أنت كباقى المبصرين تحسبين أن العينين هما كل شىء .. »

قال الكاهن بصوت جهورى :

ـ « أيها الطرواديون ! أنتم تعرفون (لاوكوون) كاهن (بوسيدون) ، وتعرفون أن ما يقوله حق .. »

هنا همس (هوميروس) فى أذنها :

ـ « هل رأيت ؟ »

ـ « أعرف .. دعنا نصغ لما يقول .. »

صاح الكاهن :

ـ « ليس من دأب الإغريق أن يحملوا هدايا .. وقديمًا قيل : احترس من اليونانى حين يجلب لك هدية .. »

سأله أحد الدهماء واسمه (سينون) (فيما بعد تحكى الأساطير أنه جاسوس إغريقى) :

ـ « وماذا تريد إذن ؟ »

ـ « أريد أن نحرق هذا الحصان الآن .. »

ـ « كف عن السخف يا (لاوكوون) .. »

لوَّح الرجل بذراعيه فى الهواء ، كأنما يرقص ، وواصل الصياح الغاضب :

ـ « أيها الحمقى .. يجب أن تصغوا لكلمات كاهنكم .. هذا الحصان الخشبى يجب أن يُحرق حالاً .. »

دنا منه صبيان فى سن المراهقة ، وجذبا عباءته صائحين :

ـ « لنرحل يا أبتِ ! »

لكنه لم يبال بهما ، وواصل تحذير الطرواديين ..

★ ★ ★

تقول الأسطورة إن (بوزيدون) إله البحار عندهم ، كان يضيق ذرعًا بالطرواديين ، ولم يرق له أن يحذرهم كاهنه من مصيرهم المحتوم ، لهذا أصدر أمره إلى أفعوانين بحريين عملاقين كى يقصدا (طروادة) ..

كان الجانب الغربى ، حيث وقف التمثال ، ملاصقًا للبحر ..

وفى اللحظة التالية انشقت صفحة الماء الهادئ ، وخرج الأفعوانان وسط صراخ القوم وذهولهم ..

التف الأول حول أحد ابنى الكاهن (لاوكـوون) ، والتف الثانى حول الآخر ..

حاول الكاهن العجوز أن يحرّر الصبيين ، لكنه لم يستطع ، وسرعان ما التف ذيل أحد الأفعوانين حول صدره .. وراح يعتصره ..

وفى النهاية لم يعد ضجيج ولا صراخ يصـدر من الضحايا الثلاث ..

وجذب كل أفعوان ضحيته أو ضحيتيـه عـائدًا إلى الماء ، وسـاد الصمت والتأمت صفحـة المـاء على ضحاياها ..

بعد قرون من السكون ، صاح أحد الرجال :

- « هذه إشارة واضحة من (بوزيدون) ! لقد غضب على كاهنـه لأنه رفض أن نجرّ الحصان إلى المدينة .. »

وقال آخر :

- « هذا فأل ! يجب أن نأخذ الحصان معنا ! »

وتعاون القوم على ربط الحصان العملاق بالحبـال ، وتعاون الشباب الأقوياء - الذين لم تبتر الحرب أطرافهم بعد - على جـرّ الحصان ، وهم يصيحون بعبارات إغريقية على غرار (هيلا هوب !) ..

وفى النهاية دخل الحصان إلى (طروادة) ..

* * *

١١ـ السقوط ..

قالت (عبير) لـ (هوميروس) وهى تتأمل الحصان العملاق داخل أسوار المدينة :

ـ « طبعًا كان الكاهن البائس على حق فى تحذيره .. »

قال ضاحكًا :

ـ « طبعًا .. فى الميثولوجيا الإغريقية يغدو كلام العرافين والكهنة صحيحًا دائمًا ، ولسبب ما يصرّ البشر على تجاهله .. ونصيحتى لك .. لو وجدت نفسك فى أية أسطورة إغريقية ؛ فعليك أن تصدقى هؤلاء القوم فورًا ! »

ثم أضاف وهو يدق الأرض بعصاه :

ـ « فيما بعد سيكتب خصمى اللورد (فيرجيل) هذه القصة فى ملحمته (الإنيادة) .. ولسوف يرى زوار

(الفاتيكان) تمثالاً رخاميًا رائعًا ، يمثل مصرع (لاوكوون) هو وولديه بين عضلات الأفعوانيين .. »

شعرت أنها رأت تمثالاً كهذا فى مكان ما ، ومن الواضح أنه راقد فى أعمق أعماق ذاكرتها .. لا بد أنه تمثال باهر الجمال ..

سألته :

ـ « والحصان ؟ إنه خدعة طبعًا .. »

ـ « طبعًا .. إنه ملىء بالجنود الإغريق الذين ينتظرون مجىء الليل كى يخرجوا منه ، ويدمروا (طروادة) .. »

تذكرت هذه القصة على الفور .. وهو موقف شبيه بالأربعين جرّة المهداة إلى (على بابا) فى قصة (على بابا والأربعين لصًا) .. وتعبير (حصان طروادة) هو تعبير آخر تضيفه الأساطير الإغريقية إلىَ التراث الأدبى الغربى ، كناية عن الهدية بريئة المظهر التى تجلب الخراب ..

ولعل آخر من استعمل هذا التعبير ، هم خبراء الكمبيوتر الذين اطلقوا اسم (خيول طروادة) Trojan Horses

على مجموعة من فيروسات الكمبيوتر ، التى تبدو بريئة المظهر ، وتدخل الكمبيوتر باعتبارها برامج نفعية مفيدة ، ثم لاتلبث أن تكشر عن أنيابها متى عرفت طريق القرص الصلب ..

قالت له وهى توشك على اعتلاء صخرة :

- « هل أنذرهم ؟ »

- « لاتفعلى .. إن (بوسيدون) سيعرف كيف يسكتك .. ثم إنهم لن يصدقوا حرفًا لأنك إغريقية ، وسبب كل هذه المآسى .. »

ربما لوانتزعت بعض ألواح الخشب ؟ »

- « لن يتركوك تفعلين .. لاتحاولى يا (هيلين) .. إن التاريخ سينفذ خطته مهما حاولنا أن نعترض .. »

- « وهل هذا تاريخ أم أسطورة ؟ »

- « حتى لو كان أسطورة .. إن قواعد الأساطير اليونانية تحتم ألايصغى البشر لنصح الناصحين ، وأن يمشوا لمصيرهم المحتوم ..

* * *

جاء المساء وأخلدت (طروادة) كلها للنوم ، بعد احتفالات صاخبة ..

لكن (عبير) لم تنم .. ظلت واقفة فى الساحة التى شمخ فيها الحصان الخشبى ، وراحت تنتظر أن ترى هذا المشهد الفريد ..

كريييك !

انفتح باب خشبى خفى فى بطن الحصان ، ثم - بالفعل - وثب أول جندى إغريقى ، وتبعه آخر .. كانوا متوترين كالهررة ، فى يد كل منهما سيف بتّار يلمع فى ضوء النجم الوحيد الباقى فى السماء ..

رآها أحدهما ، وقبل أن تقول حرفًا ، وثب بأربع قفزات نحوها ، ولفّ شعرها على يده اليسرى ، بينما وضع حدّ السيف على حنجرتها ..

هتفت وهى تخشى أن يؤدى الكلام إلى توغل السيف :

- « أنا ملكتكم ! أنا زوجة (منيلاوس) .. أنا (هيلين) ! »

تأمل وجهها فى الضوء المحتضر ، ثم ارتجف وأطلق سراحها ، وغمغم :

- « مولاتى .. ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

وهمس الآخر وهو ينحنى إجلالاً :

- « يحسن أن تبقى فى القصر مع (بيرام) العجوز .. إن ما سيحدث هنا لايجب أن تراه عين ملكية .. »

صدعت بالأمر وتراجعت للوراء ..

وبدا لها فى الظلام كأن بطن الحصان تفرغ أحشاءها .. وكأن ثعبانًا عملاقًا مدججًا بالسيوف يخرج من هناك ببطء ..

أصابها الهلع ، فراحت تجرى .. تجرى .. تجرى ..

★ ★ ★

وفى القصر راحت ترتجف ..

سدّت أذنيها .. لكن صرخات الرجال والنساء ظلت تصل إليها وخرجت إلى الشرفة لترى (طروادة)

تتحول إلى كتلة من الرماد المشتعل .. تلك البقايا التى سيجدها (هنريش شليمان) فى القرن العشرين ..

رائحة الشياط تزكم أنفها ، بينما (هوميروس) لايكف عن الإنشاد واصفًا مايحدث .. وهو على كل حال لايخرج عما يُكتب دائمًا عند اقتحام أية مدينة محاصرة ..

(هدموا الدور والمعابد ، ونهبوا الثروات ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء وبقروا بطون الحوامل ، وأخذوا بلحى الشيوخ الأجلاء ..) ..

يقول (كريستوفر هارولد) المؤرخ العظيم : «نفس المشاهد البشعة تتكرر دائمًا عند اقتحام المدن المفتوحة ، حتى إن الأمر يحتاج إلى عالم نفسى لتفسيره وليس إلى مؤرخ » .. فقط يشهد التاريخ أن الفاتحين الوحيدين الذين تعاملوا برقى وتحضر مع أهالى المدن المفتوحة هم المسلمون ، لهذا دخل أهالى أكثر هذه المدن فى الإسلام أفواجًا .. بينما انقرضت ديانات (زيوس) و(مثرا) وسواهما ..

استمرت أصوات المذبحة ،و (عبير) تتمنى لو ينقذها أحدهم من هذا كله .. وبالفعل تحققت أمنيتها ..

سمعت صوت القلم الجافّ (يتكتك) ، ثم ظهر (المرشد) حاملاً على وجهه قناع اللامبالاة المعتاد ..

قال لها :

ـ « لقد سقطت (طروادة) يا (أليس) .. حان وقت الرحيل .. »

قالت وهى تتنهد :

ـ « حقًا حان الوقت .. لكن القصة مازالت مبتورة ..

قال لها :

ـ « سأقدم لك خدمة .. هى أن أحكى مصير كل واحد من الأبطال بعد الحرب ، كما يحدث فى الأفلام المأخوذة عن قصص من الواقع .. »

* * *

ـ (هيلين) : يعيدها الإغريق إلى (منيلاوس) زوجها ، الذى يجىء إلى (طروادة) .. ويعود الزوجان إلى الوطن ، لكن العواصف تطيح بالسفينة ، ويضطران إلى أن يجنحا مرة فى (قبرص) ومرة فى (مصر) ..

فى النهاية يعودان إلى (إسبرطة) ويعيشان حياة هادئة سعيدة .. يبدو أن الحب يغفر كل شىء حتى بالنسبة لـ (هيلين) ، التى أشعلت حرب عشرة أعوام ضروسًا ، وتسببت فى موت ألوف الأبطال ..

لم يرزق الاثنان إلا بطفلة واحدة ، هى ـ كما عرفنا ـ (هرميون) ..

ـ (أجاممنون) : يعود لوطنه مظفرًا بعد سقوط (طروادة) .. ويقدم له جيشه هدية قيمة هى الأميرة الطروادية الأسيرة (كاساندرا) ..

أثار هذا غيظ زوجته (كليتمنسترا) .. وكما تفعل الزوجات الغيورات فى كل زمان ومكان ، قامت بقتله

فى الحمام .. وهو نوع من الحبّ مبالغ فيه نوعًا .. وبعد أعوام كبر ابنه (أورستس) وانتقم لأبيه ..

إن قصة حياة هذا الرجل مذكورة بعناية فى ثلاثية (أورستيا) للشاعر (إسخيلوس) ..

- (إينياس) : من القلائل الناجين من طروادة بعد المذبحة .. وقد فرّ مع باقى الناجين إلى رقعة على البحر المتوسط تشبه الحذاء .. وهى التى صارت إيطاليا اليوم ..

وقصة هذا الفرار تحكيها (إنيادة) (فيرجيل) بالتفصيل الممل .. جدًا ..

- (أوديسيوس) : البطل الإغريقى العظيم الذى يعود لوطنه وزوجته المخلصة (بنيلوبى) ، لكنه يضل طريقه فى البحر المتوسط ، ويغيب عشرة أعوام كاملة !

إن (الأوديسة) ليست إلا قصة رحلة العودة هذه ..

- (هوميروس) : برغم الجدل المحتدم حول شخصيته ، فإنه كان الأب الروحى للأدب اليونانى وربما الغربى كله .. إن (الفردوس المفقود) لـ (ميلتون) يشى بتأثر بالغ بأشعار (هوميروس) .. كما نرى هذا الأثر بوضوح فى (دون كيشوت) لـ (سرفانتس) ، و(أوليسيوس) لـ (جيمس جويس) ..

ترجمت أعمال (هوميروس) إلى الإنجليزية على أيدى (تشابمان) عام ١٦٦١ و(بوب) عام ١٧١٥ - ١٧٢٦ .. كما أن هناك ترجمة إنجليزية معاصرة قدمها (روبرت فيتز جيرالد) فى القرن العشرين ..

لن نعرف الحقيقة أبدًا .. هل وجد (هوميروس) أم لم يوجد .. لكن حرب (طروادة) حدثت فعلاً ، وبشكل لايختلف كثيرًا عما نعرفه ..

* * *

في القصة القادمة ؛ نخوض مع (أوديسيوس) رحلته المخيفة في طريق العودة إلى وطنه وزوجته الحبيبة (بنيلوبى) ..

* * *

[تمت بحمد الله]





مغامرات ممتعة
من أرض الخيـــال

من أجل طروادة


د. أحمد خالد توفيق

تعالوا أيها المحاربون الشجعان ننتقم لكرامتنا .. تعالوا يامحاربى (إسبرطة) العظام .. تعال يا(أخيل) ويا(أجا ممنون) ويا(نسطور) نجتاح أسوار (طروادة) .. نحرق حقولها .. نبيد شعبها .. نحيلها إلى خراب .. ولينشد (هوميروس) على قيثارته قصة مجدنا ..

القصة القادمة

عودة المحارب

الثمن فى مصر ٢٠٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مطابع